

الظاهرة الشعرية في فلسطين

وأثر الاحتلال عليها

د. نزار نبيد أبو منشأء الحرأوي

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

" والله أخرجكم من بطون أمهاتكم
لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع
والأبصار والافئدة لعلكم تشكرون "

النحل : ٧٨

الإهداء..

- بكل تواضع واحترام وتقدير أتقدم بهذا العمل هدية متواضعة إلى :
- شهداء شعبنا الكرام ، الذين بذلوا أقصى ما يملكون في سبيل معتقداتهم السامية (والجود بالنفس أقصى غاية الجود) .
 - إلى أسرى هذا الشعب وجرحاه البواسل .
 - إلى كل صغير يلمع في عينيه بريق النصر ووهج الحرية والخلص .
 - إلى أساتذتي وأصحاب الفضل علي ، الذين تشرفت بالتلمذ على أيديهم .
 - إلى العلماء المخلصين العاملين الذين خاضوا باليراع والدواة ملاحم تعجز عن وصفها الأقلام .
 - إلى الدعاة المسلمين ، أحباب البناء وقطب والمهضيبي وأبو النصر ، وكل القادة الأفاضل .
 - إلى علمائنا في خليل الرحمان ، مشاعل العطاء المتوقدة .
 - إلى كل صابرٍ حرٍّ غيورٍ على دينه ووطنه وقضيته ولغته .
 - إلى من تبقى من اصدقائي ورفقاء دربي .

أهديكم جميعا هذا الإصدار
ولكم كل احترامي وتقديري .

المؤلف

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ، ثم الفضل والمنّة له - جل في علاه - على ما حبانا به من خير بدينه السمح الحنيف ، والصلاة والسلام على من كان نبزاً لجنده وهدياً لقومه ، وبشيراً ونذيراً للعالمين.

والسلام على أهل الإيمان أينما حلّوا أو ارتحلوا ، فوق أي أرض كانوا وتحت أي سماء ، سلاماً ينثر النسيمات القرنفلية الدافئة ، يحيي في الخلف طهارة السلف ، وبعد ..

فإن من حكمة الله تعالى علينا - نحن بني البشر - أن بعث فينا نبياً منا ينطق بلسان عربي مبين ، يرفد فينا منابع الخير لمن ينطق بلسان عربي مبين ، يرفد فينا منارات العلم والهدى مع أول قطرة من غيث الوحي جاءت من فوق الطباق السبع ، يقول فيها - عز وجل - ((اقرأ باسم ربك الذي خلق)) (١) ، فسالت أقلام أتباعه بفيض غامر ، وسحر زاخر ، يجوبون ميادين الأدب والثقافة جنباً إلى جنب مع الفقه والتأصيل الشرعي .

١ . سورة العلق ، الآية : ١ .

من تراث علمي ذهني أدبي جمّ ، تواصل الزخم الأدبي المتنامي ،
يسجل بقلم الإبداع مقالات الطهارة ، وقصص الفخار ، وقصائد التوير ،
ورسائل البحث العلمي الذي تسارع به العقل والتطور حتى وضع مع كل جيل
موضوعات يرتقي بها الإبداع الأدبي ذكراً ووصفاً وتسجيلاً ، ووضع الأنام أمام
الفكر الراقى، فتألقت الأقلام السيالة ، والأدمغة الأدبية الواعدة ، وأخذت تجوب
لجة الواقع ، تتناوله بما فتح الله عليها من قوة التحليل ، وسلامة التصوير ،
وروعة الوصف بأرقى الوسائل الأدبية وأكرمها.

والشعر قبل ذلك وبعده ، كان ميدان رواد الأدب ، يلونون إلى قافيات
قصائدهم ليترجموا ما زخرت به قلوبهم من القيم والمبادئ والميول والإتجاهات،
فتراهم يحللون الواقع إلى نسيج شعري فياض ، ويبرزون الوقائع والأحداث كلُّ
بأسلوبه ، وكلُّ بكمّ الإمكانيات الذهنية والعقلية التي تميز بها ، ولكنهم جميعاً
يفرزون إلى النور تراثاً جديداً ، ومدأً يربط الماضي بالواقع ، ليُستشرف في
ظلاله المستقبل .

وعلى مدار التاريخ - قبل الإسلام وبعده - كان الشاعر لسان قومه ،
وترجمان مجتمعه ، وصاحب التأثير في الحلبة الإعلامية ، يشد أركان مجتمعه
، ويبرز مواطن القوة فيه مفاخرة ودعماً ، وسلبيات البيئة التي عاصرها
وحاصرها ليضع أساسيات التلافي .

ومع تقدم عجلة الزمان ، أخذ الشعر مميزاتة التي تحلى بها من العصر الذي كتب فيه ، فحاز مقومات جديدة مع كل مرحلة يتقدم فيها ، ويطلع فيه الشعراء سماتهم الذاتية ممزوجة بالصفات المكتسبة أو الموروثة في مجتمعهم ، حتى حازت المكانة التراثية نماذج رائدة من الشعراء المبدعين أصحاب السبق في مجالات التطور الشعري وآفاقه .

وها نحن اليوم ، نقف أمام هذه العطاء الممتد إجلالاً وإكباراً لكل قطرة حبر سالت من دواة ، لنقرأ بين أبيات الشعر قسماً التاريخ ، ونتعرف إلى منجزات الأمم ، ونطلع على أسرار التدوين ، ومنعطفات الأدب ، ومنطق الفن التصويري لكل شاعر .

أمام هذا الواقع ؛ أردت أن أحط رحالي في واقع الحياة التي أعيشها لأقرأ في وجوه الشعراء المعاصرين في بلدي العزيز معالم الأدب الشعري ، وأضع بين يدي القارئ الكريم نقاط القوة والضعف في مسيرة البعث الشعري الأدبي ، وما اعتراها من بأس ، وما أفرزته من معطيات برغم الجراح .

عندما أتحدث عن اسم فلسطين ، يهتز القلم بين يدي احتراماً لتاريخ مشرف مكتوب في أرض المسرى ، وعلى جذوع الزيتون القديم ، ولبطولات ناصعة البياض منقوشة في ذاكرة الأيام عن شعب عانى أقصى ظروف البطش والتنكيل والإضطهاد ، لأدع القارئ الكريم في معمعان تلاطم أحداث الماضي وصراعات الحاضر .

في هذا الكتاب .. أ طرح ما وصلت إليه الحالة الشعرية في فلسطيننا الجريحة ، كأحد الشعراء الذين يكتبون الشعر في الوطن السليب ، وما قد أفرزته هذه الحالة من الرصيد الأدبي رغم جراحات أثقلتها، وأسلط الضوء على مواطن المحنة وأثرها على الأدب الفلسطيني ، وكيف انتزع الشعراء قرائحهم من بين براثن التسلط والجبروت الصهيوني اللذان لطالما استهدفوها.

وقبل أن يلج القارئ الكريم إلى لبّ الموضوع ، فإنني أسجل أمام الجميع محبتي للغتي الرائعة ، مع أنني لست أحد متخصصيها أو دارسيها ، وإنما هي ملكة أحببت أن أسهم في تميميها والحفاظ عليها بباعي وذراعي ، وها أنا أضع كفي بين أيادي جادت ، وقلوب نبضت شغفا بلغتها التي جسدت كل طهارة الحضارة والمدنية.

وإن كنت أقدم هذه الوريقات للقارئ الكريم ، فإنني أستميحه عذراً إذا لمس مني في بعض حناياها الضعف أو التقصير ، ومجانبة الأسلوب العلمي المعاصر الذي أحبه ، فقد كتبت هذه الصفحات في بطن الحوت الصهيوني ، وبين أنياب الحديد وأسلاك الموت ، حيث لا مرجع ولا كتاب ، ولا معتمد ولا ملاذ ولا مستشار .

ولكني أعملت ما لدي من ذاكرة ، وتفرست في الواقع الذي أعيشه ، لأكتب في عنوان كبير أسميته (الظاهرة الشعرية في فلسطين) ، والذي عنونت له بهذا الاسم لمعرفتي أن الشاعر الذي يصمد في خضم الحرب الضروس ،

ویمتثق یراعه لیدون ویؤلف ویسجل هو ظاهره بحد ذاته ، لأنه تعملق فوق
أغلل الواقع ، وأرسل صرخاته حرّی علی جنمانه المسجی .

إن أرید إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفیقی إلا بالله

علیه الإعتماء والأتكال

المؤلف

الشعر كفن أدبي

إن اللسان العربي حين استوعبته أمة العرب شكل لديها قاعدة للأدب والبلاغة ، وراح أهل هذا اللسان الأصلاء يتوسعون في مبانيه وصور تصريفه ، فقولبوا لكل فنّ قالباً خاصاً به ، ووضعوا ببلاغتهم وحرصاً فاهماً وإتساع نظرتهم أبواباً متعددة ؛ كلها تؤدي بسالكها نحو قصر العربية الشامخ .

ويتوسع فنون اللغة ، كان الأدب قد أفسح للشعر أن يحتل مكانة مرموقة في سلم الفنون الأدبية ، فتوضحت معالم بحوره بتفصيلاتها ، ووجدت المدارس الشعرية المتعددة ؛ التي ساهمت بمجموعها في نمو متسارع لهذا الفن ، وتعزيز مكانته بين مناحي الأدب العربي الأخرى .

ولا تجد من ينكر أن الشعر هو مرحلة متقدمة من مراحل التعامل مع أسرار اللغة ، فهو يدمج بها بديع اللغة وجناسها وبلاغتها ونحوها وصرفها وقواعدها في أبحره الشعرية ، ليزيّز أقرانه من الفنون ، كالقصة والمسرح والخطابة والرواية وغيرها .. مع اعترافنا بفضل كل منها ومكانتها .

بهذه المكانة الرفيعة ، تسلل الشعر إلى قمة الفنون الأدبية ، ليكون بوافره وطويله وبسببته وخفيفه وكامله وغير ذلك أنموذجاً من التعبير الأدبي الراقى .

من أجل ذلك ترى الشعراء راحوا يخوضون أسرارهم ويسبرون غور اللغة ليصوغوا بالشعر عموديه وحره صوراً من الإبداع ، وحالة من الازدهار الفكري ، وحالة أخرى من الانتماء البار إلى اللغة العربية ؛ لكونها محضن كل فنٍ وإبداع .

وبذلك، شكّل الشعر دعامة أساسية لكل أمة تحترم نفسها ، فتراها تكرم شعرائها لكونهم نساءم الأمة ، وصحوة الإبداع فيها ، ويغدقون عليهم من الحوافز والعطايا ما يجعل الشعر ينتشي ويتألق يوماً بعد يوم .

الشعر في نموه التاريخي

عندما نأتي لعصر التاريخ في وريقات ؛ فإننا نجد الكلمات تتفجر من كثرة تحشدها ، وترفض أن تستوعب ما قد يكتبه هذا أو ذاك من الكتاب أو الأدباء .

ولكننا نريد أن نعطي هنا صورة موجزة عن النمو التاريخي للفن الشعري ، ثم نسدل الستار وقد وصلنا إلى مبتغانا .

فمنذ وجدت اللغة ، كان التطور مقروناً معها ، ومع كل إطلالة شمس ، كانت هذه اللغة تتوسع وتتناثر ، إلي أن قاد العقل البشري مسيرة النهضة الأدبية وصولاً إلى أبحر الشعر وأسسه .

فقد قرأنا عن الشعراء البلغاء حين كان التاريخ صغيراً يحبو ،
وتزاحمت الأسماء والقصائد في المكتبات والأذهان فوق أن تحصى ، فسمعنا
عن امرؤ القيس ، وعنتر ، وطرفة بن العبد ، والنابغة الذبياني ، وأبو تمام ،
والفرزدق، وجريير ، وأحمد شوقي، وغيرهم الكثير الكثير .

ومع ازدياد الذخيرة الذهنية لدى الأجيال ، وكثرة الوقائع والمشاهد
تبعاً لتطور الحياة ، سلك الشعر مسلك الارتقاء ، وكان يعلو مسيرة التعبير
الراقية ، وبات يشكل ما نعرفه في أيامنا هذه بالسلطة الرابعة أو وسائل الإعلام
مجتمعة.

أثبتت الروايات التاريخية أن الحكام والسلاطين كانوا يتخذون
الشعراء في مجالسهم ، سمرأ وطرباً وترنيماً ومدحاً ، وأنهم أغدقوا عليهم
الهدايا والعطايا حتى يستمروا في مشاريع وصف الحال وإبداع المقال.

لقد طربت الأذن البشرية لسماع الشعر ، واعتادت على حكمه
ومضامينه، وكان في جرسه الموسيقي ما يشنّف الأذان ، ويسلّي الجنان ،
ويطرد السامة والملل ، حتى إنه غدا وسيلة للتنافس المحترم ما بين الشعراء ،
كل يعرض ما عنده ، وكل يحاول أن يروج لبنات أفكاره ، وما جادت به
مواهبه ، فصار يضع ذلك بأسلوبه الخاص ، ويصقل الحروف والكلمات ليقدّمها
للسامع مادة أدبية زاهرة زاهية .

فقد عُرف في تاريخ العرب " أسواق الأدب " (٢) ، وهي مواطن تجمع الشعراء ، تستقطب الناس من الأمير إلى الحقير ، ومن الوزير إلى الفقير ، ليستمع الجميع إلى الإبداع العربي المتّقد ، وإلى جودة الصياغة ، ورصانة الألفاظ ، وبديع النسج ، عدا عن السجال الشعري والنقائض التي كان يخوضها عدد من الشعراء الأفاضل .

وكيف لنا أن نغفل إعزاز العرب لرواد الأدب ، ونحن نعلم أن العرب قد وضعوا لآلئ النظم الشعري في أقدس البقاع ، فها هي المعلقات السبع بعد أن حازت من المناقب والصفات العجب العجاب تدخل جوف الكعبة ، رفعة لها ولمن نظموها ، وإفتخاراً بمادة أدبية تتباهى بها الأجيال (٣).

لكن ، وبكل الأسف ، فقد تعرضت لغة الضاد إلى أبشع حملات التشويه والدس ، لتفريغها من الروعة ، ولإنزالها عن عرش اللغات ، فضعفت اللغة ، وإندثرت كثير من المصطلحات ، وفقد اللسان العربي رصانته إلى حد كبير ، مما إنعكس على مستوى التأليف الشعري ، فالشعراء في العصر الحديث ورثوا لغة مثقلة بالهموم والإشكاليات ، وحملوا عبئاً مزدوجاً ، عبء الحفاظ على رونق اللغة وقوتها ، وجزالة ألفاظها ، وعبء التطور الشعري فيها.

^٢ من أشهرها سوق عكاظ وذي المحنة وذي المجاز.

^٣ مقدمة كتاب : شرح المعلقات السبع ، عبدالله الحسن بن أحمد الزوزني (ت ٤٨٦ هـ) تحقيق محمد الفاضلي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٨م ، ص ٥-٦

ولايجوز لنا بحال أن نعيب على شاعر ، بحال قارننا قصائده بالمعلقات السبع فوجدنا فارقاً ضخماً ، فلهذه زمان ولهذه زمان ، وإن من أبلغ التضحية وأحكم الخطوات أن تبعث في اللغة بعدما ضربت في مقتل : روح الإنتعاش من جديد ، مع أملنا الوافر بعودة اللغة إلى سلامتها وصحتها بمثل ما كانت عليه ، وبخاصة مع اعتقادنا بأنها لغة القرآن ، وبها يسان وتسان هي به بلا جدال.

الشعر في العهد الإسلامي

ظهر الإسلام أول ما ظهر في بلاد العرب ، وكان من مقتضيات ذلك أن يتأثر المجتمع الإسلامي منذ نعومة أظفاره وحتى ترسيخ دعائمه في الأقطار بالحياة السائدة ، لاسيما الجانب الثقافي من الحياة المجتمعية .

فقد عني الإسلام بالأدب مكانة وموضعاً ، وأنزل الشعر والشعراء منازلهم ، فقد ذكره القرآن الكريم واضعاً حديه أمام كل ناظر ، فعاب على من اتخذ من الشعر وسيلة لهوٍ وترفٍ فكري ، ومجالاً للتفاخر المذموم والمديح الممقوت، واستثنى زمرة الشعراء من أهل الإيمان والعمل الصالح ، ومن جعلوه مدرجة لذكر الله وتذكير الناس بالفضائل .

قال تعالى : ((والشعراء ينبعثون * ألم تر أنهم في كل واد يهيمون * وأهم يقولون ما لا يفعلون * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً)) (٤) .

شهدت روايات التاريخ الموثقة المتسلسلة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سمع الشعر يُنشد بين يديه ، بل وكان يطالب الشعراء أن يفيضوا

٤ . سورة الشعراء / الآيات : ٢٤٤ - ٢٤٦ .

بمعين أقوالهم أمامه ، وقد جعل - عليه السلام - للمعركة الإعلامية بين معسكر المسلمين ومعسكر خصومهم جبهة مفتوحة قاد ركابها حسان بن ثابت " شاعر الرسول " - صلى الله عليه وسلم - وعبد الله بن رواحة وغيرهما ، حيث جعلوا من قرائحهم الشعرية مادة ينصرون بها - بإذن الله - المد الإسلامي الزاحف ، وينصرون القيم الإيجابية في المجتمع ، وينسفون ما سواها .

وبسمو الفهم ؛ كان خلفاء الدولة الإسلامية بعد رسول الله يتذكرون أنه كان ينادي على حسان بن ثابت في أوقات لا ينفع فيها سيف خالد ، فباتوا على صلة بالشعر ، وخاصةً : ما ينطق منه بالحكمة .

تميز من بين الخلفاء بذكرهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حيث كان يتذوق القصائد الشعرية ويعلق عليها ، وكان من المعجبين بشعر النابغة الذبياني ، وقد وردت قصائد نسبت إلى علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - تبين النظرة الواعية لدور الشعر في حياة الأمة - والرسالة الحضارية التي يمكن إيصالها ما بين كل رؤي وقافية ، ومن حكمه وأشعاره - رضي الله عنه - لا زالت الناس تتشد ، وخصوصاً بعض أشعاره المشهورة بفخر المنتمي الأصيل لدين الله القويم (٥) .

٥ . انظر في ذلك : المرتضى ، أبو علي الحسن بن الندي ، دار القلم - دمشق ، الطبعة الثانية ١٩٩٨م ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

ومن ثم ؛ ازدهرت الحركة الأدبية في العصور الإسلامية اللاحقة ،
فتراها ترتقي في العهد الأموي نتيجة كثرة الوقائع والمساجلات، وإضافة
حواضر إسلامية جديدة إلى جسد الدين الجديد ، فصارت بلاد الشام والعراق
وغيرها منارات للأدب والشعر والمساجلات الشعرية بين دهاقنة الشعراء.

بمثل هذا النعيم والإبداع تطورت المواهب ، وتخصصت المدارس ،
وتنوعت المشارب الفكرية ، وبخاصة بمجيء الدولة العباسية ، يرفدهم خليفة
خليفة^(٦). كلهم قد رعي العلم واعتنى بأهله ، وقدم أهل الشعر والفصاحة إلى
منزلة عالية في قصور الإمارة ، حتى باتوا يصطحبونهم معهم في كل معركة
وفي كل تحرك ، ليوثقوا للدنيا أمجاداً ينبغي لها أن تحفظ وتراعى .

بذلك نجزم أن دين الشمول والوسطية قد أعطى كل إنسان حقه في
الإبداع ما بين الضوابط ، بل وحثّ في أكثر من آية وأكثر من حديث على
ضرورة إعمال العقل وتتوير الفكر ، وفتح آفاق الابتكار الذهني ، مما يثري
البيئة الأساسية التي ينطلق منها الشعراء والأدباء .

^٦ . انظر : مجلة العربي ، العدد ٥٠٩ ، سنة ٢٠٠١ ، عدد شهر ٤ ، صفحة ٧٤ - ٧٩
وفيها تفصيل وبيان شامل للنهضة في العصر العباسي .

الشعر ودوره في البناء العام

راجت فنون الشعر في المجتمعات في عصورها المختلفة ، لما يتمتع به الشعر من المحاكاة للواقع ، وتبيان للمواقف ، وتأصيل للفهم ، ونضوج في التصور .

والشاعر عنصر من التركيبة المجتمعية ، شأنه شأن السياسي والمفكر والتاجر ، يجري عليه ما يجري عليهم ، فهم في السراء والضراء وحين البأس سواء ، لا تختلف حالته والتأثيرات والضغوط والحوافز عن هؤلاء وأقرانهم ؛ إلا من حيث البعد الشخصي وآثاره التي تطبع في ذاته .

مؤدى الكلام : أن الشاعر يخامر أدوار المجتمع ، وأنه يتجرع كأس الواقع كغيره ، ولكنه يبرز عنهم بما لديه من ملكة النظم وصرف القوافي ، فإن رأى خيراً أصاب أمته ، هاج قلمه ؛ وراح يرسى الدعائم ، ويضع الأوصاف بحكمته الموروثة والذاتية ، وإن مر به زمن رخاء ، ترى اليراع بين أنامله يهتز شوقاً لتقبيل الصفحات ، ليجود في كلا الحالتين بلاغة وأدباً وحكمة .

والشاعر الحر الذي صدق ولاؤه وإنتماؤه إلى دينة ووطنه وقضيته ، وتواصلت جذوره ، وسلمت إلى أعماق أرضه ، تراه ينتفض ليواجه التحدي ، ويلهب الحماس ، ويؤجج المشاعر ، ويوحد الصفوف ، وينسج من بحر كلماته راية موحدة تلتقي تحت ظلالها محافل الثائرين .

لا يقتصر الأمر على الحرب فحسب ، بل إن الشاعر يتقلب في فيض أحاسيسه ومشاعره في حالات السلم ، فهو لا يلوذ تلقاء الصمت إن خرست الأسنان والحراب ، بل إنه بنضوجه وتوثبه الدائم يتصف بالجاهزية الدائمة ، ترى يراعه مسنوداً إلى الصحائف ، وعيونه ترقب التصرفات بخيرها وشرها ، وآذانه تسمع ما يدور بين الناس من تصورات وأطروحات.

فمن تذوق الشعر بكل منابعه ، عرف حجم العبء ، ومقدار التكليف، فترى الشاعر يجوب باحات علم الاجتماع ، ويطرق أبواب السياسة ، ويعلق على أحداث الحكم والرعية ، وهو بذلك يشكل درع الشعب ولسانه الناطق ، فإن عاب على أمر حشدَّ ضده الحكم والأمثال والكلمات ومجريات الأمور ، ليشنع هذا الأمر ويدع كل صاحب عقل يستقبحه ، وإن وجد من الأمر ما استلهم كل المدح وحروف الشكر ، أمتدح العمل الإيجابي وكرم صانعه كائناتاً من كان .

بالتالي ؛ فإن الشاعر من بحر قصائده يؤكد القيم والثوابت الإيجابية على مختلف الأصعدة ، وينفي وينكر ويسل صمصامه في وجه كل فكرة أو عمل أو شخص يتجرأ بمساس ثابت من ثوابت مجتمعه ، أو مقدس في الفكر والتصور المعتقد .

ومن نظرة الناس إلى الشاعر ؛ بكونه صاحب رسالة ومكانة ، فقد أخذت الأشعار البناءة دورها في صياغة أجيال الجيل ، وصارت

موضوعات مدعّمة بالحكمة والشواهد ، تدرّس في المدارس ، ويتلقفها الناشئة والفتيان والشباب والشيبان على حد سواء .

بذا ؛ ساهم الشعر في تأجيج مراحل التقدم ورفدها بمعين من الحكمة لا ينضب ، فكانوا في العلم والتربية والتوجيه سادة ، وفي السياسة والاقتصاد قادة ، وساسوا الناس بأشعارهم لييمموا بهم شطر السعادة .

وقد تحدث الدكتور جابر عصفور عن دور الشاعر ومدى تأثير بلاغته في وجدان الناس ، في أوراق أدبية نشرتها مجلة العربي الكويتية تحت عنوان: " صنعة الشعر .. كيف تهز الكلمات الوجدان " (٧) أجاد فيها واسترسل .

^٧. انظر : مجلة العربي ، وزارة الإعلام بدولة الكويت ، رئيس التحرير د. سليمان العسكري ، العدد ٥٣- ربيع الأول ١٤٢٤ هـ / ص ٧٦ - ٨٢

الشعر وفنون الأدب الأخرى

في مجتمع كمجتمعنا الفلسطيني ، وما يعانیه ويقاسیه من ظروف القهر والتشريد ، ويضيّق عليه في قوّته ومعاشه وحركاته ، وتراقب حتى سكناته ، وفي بيئة تخيم فوقها سراقق الليل وعيون الباطل ، صمت كثيرون؛ يتمترسون خلف أسوار صمتهم ، وينسجون من سكوتهم كوفيات يلجمون بها أفواههم ، في حين تعلق رواد الأدب الأصلاء ، يصادقون الدواة والقلم ، لينشروا من وحي معاناتهم روح الإباء ، وليخرجوا من رحم المأساة المتكررة والحروب الضروس أناشيد الثبات والتضحية ، والألم اللذيذ الذي يُستبشر من بعده الأمل .

فترى الشعر يسير جنباً إلى جنب مع المسرح ، ومع المقالة ، والرواية ، والقصة والأقصوصة ، ليجتمع أو يتمايز عن الخطابة والنثر والزجل والأهازيج ، ليشكل كل فن منها لواءً ينضوي في خميس النهضة ، ويتغلغل في منعطفات الحياة .

ومن العار أن يغفل الناس والأدباء المجهودات المبذولة في التراث الموجود ، شعراً ونثراً ، وكأنهم يحتقرون الكلمة الفلسطينية التي صنعت الرجال ، وهذا تجنٍ واضح بين ، فالأولى أن يتم إشهار المنتجات الأدبية وإظهارها أمام عيون المجتمع المحلي والدولي ، حتى يقرأ الناس في أسطرها وكلماتها أثر الجراح ، وحتى تتغلغل المأساة وظلالها التي لا زالت ممتدة في

أعماق كل ذي لبٍّ وبصيرة ، في وجدان كل حي لا زال فيه عرق للحياة
وبالحياة ينبض.

سواء كانت هذه التجاوزات من دور النشر ومحافل الطباعة والإعلام
بقصد أو بدون قصد ، فإنها شكلت عقبةً كؤوداً في وجه النمو الأدبي ، وأدت
إلى إستثناء العقل الفلسطيني من حلبة الفعل الدولي ، وهو ما ساهم بانتكاسة
أدبية قصرت الإبداع في أضيق محيط ، حتى تتقرم القضية ولا تتناطح بفروعها
دول الجوار ، عدا عن المنظومة الدولية بأجمعها ، تلك التي افتترست الحق
الفلسطيني حتى النخاع.

تغيب الشعراء ..

مشروع ذو أبعاد ، معروف مذ عرف العقل الهمجي والعدوان
السافر، أن يُقصى كل من يحاول قول : " لا " في وجه المخططات الاستعمارية
الدولية، أو المطامع التوسعية الصهيونية^(٨)، ولكن لماذا ؟

إرادة الحكومات - صالحها وطالحها- أجمعت على ترسيخ دعائم
عروشهم الكرتونية بقوة النار والحديد ، وأسأل من سُمي زوراً بالصالح منهم
ومن استحق لفظ الطالح ، ويكون ذلك لهدفين لا ثالث لهما:

الأول : إسقاط مراكز القوى والتأثير في عقول الجماهير ، فكل ثورة
إنما بدأت بكلمة ، وكل صدام تتلأأ في سمائه نيران المدافع إنما سبقته مرحلة
الفكرة الممهدة ، وبالتالي .. تقوم الحكومات بعزل المؤثرين عن الجمهور ،
واسأل عن الشهيد الحي سيد قطب يأتيك بالأنباء من لم تزود .

الثاني : هو التأثير على شخصية الشاعر أو الأديب ، والتلاعب
بأعصابه، وتهديده في مستقبله الوظيفي أو الأدبي أو ميدان الشهرة ، وبالتالي

^٨ . اقرأ عن محنة الشيخ : د. يوسف القرضاوي في الشعر في كتاب : حول قضايا
الإسلام والعصر ، د. يوسف القرضاوي ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، الطبعة الأولى (٢٠٠١) م .

وضعه في حلقة مفرغة ، وصراع داخلي مع نفسه التي بين جنبيه ، على أمل أن تنفيه عن هدفه وغايته (٩) .

وقد فشلت هذه المكائد ، وعادت بعد هذه الجهود المتوالية بخفي حنين، لا بل كسبت اللعنة ونقمة الشعوب وحنقها، والشهيد سيد قطب مثال حي، حيث إن المطابع المحلية في مصر ، بل والدولية ، تعلق سبب ازدهارها على شدة الإقبال على كتبه بعد موته شهيداً (١٠) . وحتى في العصر الحاضر وحديث الأيام ؛ أمثلة تتكرر وشواهد تثور (١١) ، وفي ذلك عبرة أي عبرة .

^٩ الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، مالك بن نبي ، ص ٣٨ - ٣٩

^{١٠} إرجع إلى : سيد قطب الأديب الناقد والداعية المجاهد والمفكر المفسر الرائد ، صلاح

الخالدي ، دار القلم - دمشق ، ط ١ ٢٠٠٠ م ، ص ٣٢٣ - ٣٦٢ .

^{١١} انظر : مجلة الوطن العربي ، إصدار شركة بريد جمونت النابضة - بنما ، العدد

١٣٦٩ ط ٢٠٠٣/٥/٣٠ ، ص ٤٦ - ٤٨ .

إشكالية العمل الإحصائي :

هذه قضية لا بد من إثارتها هنا ، لأنك مقيد بقيود تزفك من باب بيتك حتى تصل إلى حيث تريد ، لا بد للقارئ أن يعيها حق الوعي ؛ حتى لا يهضم الناس مجهوداتهم ، وحتى لا يعيب على إنسان تحجرت أمامه الأبواب ، وصدئت أمام مفاتحه الأقفال .

عندما يريد الإنسان الفلسطيني عموماً أن يحصل على أي معلومة تختص بالجانب الإحصائي أو الإستقرائي ؛ ضاقت أم إتسعت دائرة شمولها ، فإنه لا محالة مصطدم بجدار إسمنتي صلب ؛ من حيث الجهد البحثي المضاعف والوقت الكثير المهدور .

تظهر المشكلة جلية في كون الواقع الفلسطيني قد غمرته أمواج التيه، وتركته يستتجد وحده بعد أن كملت فمه ولم تترك له مجالاً للصراخ ، فكان أهل العلم يبحرون بسفينة إبداعهم بما تيسر لهم من معلومات ، وهي مهما وصلت في دقتها فلن تبلغ الدرجات القصوى ، ذلك أن الاحتلال أفرز حالة من الحصار والتضييق شملت مختلف مناحي الحياة .

فالمؤسسات المدنية أغلقت ، وغلقت " بديمقراطيتهم " ظاهرها وباطنها ، ومراكز الأبحاث وئدت ، ومؤسسات الدراسات الإقليمية والمحلية

والدولية كلها تعرقل عملها ، بل أصابه الشلل التام ؛ حتى ما عادت تنفع معه يد الطب ، ولا جراحة الأخصائيين.

وحتى لما قامت المشاريع السلمية مع الكيان الغاصب ، وولد مشروع أو سلو المسخ ، بدأت شرارات العمل الإحصائي تظهر وتشق طريقها إلى عالم الأحياء ، ولكنها لا زالت تصطدم بالحواجز والعراقيل التي تكبل حركتها ، وتقلص امتدادها ، وبالتالي ؛ تزيد هامش الخطأ في الإحصائيات التي تقدمها ، مما يعني وبشكل لا جدال فيه أن النظرة المبنية على هذه الإحصاءات لن تكون دقيقة بحال ، مما سيعكس حالة من الفوضى السياسية ، والتخبط في التخطيط ، والعفوية في الإدارة ، ليبقى المستفيد الوحيد منها هو الاحتلال البغيض الجاثم على ثرانا ، والمتربع في جناننا المغتصبة .

إن هذه النظرة ليست في مجال نقد أو تخطيء ، فهنا هي مراكز الإحصاء عينها تقرّ بالعقبات التي تواجهها ، وتتنشر للرأي العام المخاطر الجاثمة فوق صدر الإحصائيين والدارسين وأهل الإستقراء .

يقول الدكتور حسن أبولبدة : ((وفي المقابل نلاحظ أن النشاط الإحصائي قبل اندلاع الانتفاضة قد اقتصر على بعض النشاطات الضيقة فقط ، الأمر الذي أدى إلى انتشار ظاهرة تصدق أي رقم إحصائي يتم طرحه وتداوله ،

وهو ما أفسح المجال أمام وجود أرقام متناقضة ومذهلة في الأراضي المحتلة))^(١٢). وهذا كلام مدير مركز الإحصاء الفلسطيني عينه .

وقد لمست هذا الأمر جلياً أثناء كتابتي لهذه الأوراق البحثية ، حيث وجدت كل الصعوبات قد أنصهرت أمامي حاجزاً فولاذياً ، لولا إرادتي لوقفت أمامه عاجزاً ، فمن أين سيجد الباحث الإحصائيات التي هي المستند الأول والأرفع في أي تحرك علمي؟؟

من أي نبع سيكشف الكاتب المواقع والأسماء والوقائع؟؟

مع كل هذه المراجعة ، أوهنت هذه العقبات عزائم كثيرين ، فوقفوا مكتوفي الأيدي أمام التحدي القائم ، ولو أن كل أديب أو باحث أو مؤلف شمّر عن سواعد البحث - ولو كان ذاتياً - لأمكنه أن يخطو خطوة تلقاء شاطئ المعرفة ، فنحن نعلم أن " همُّ الرجالِ عليّةٌ لا تصغرُ " .

^{١٢} الواقع الإحصائي في الأراضي المحتلة والتحديات المستقبلية ، د. حسن أبولبدة ، مركز البحوث والدراسات الفلسطينية - نابلس ، طبعة عام ١٩٩٤ ، الطبعة الأولى ، ص ٨.

مهمة الشاعر ..

يتساءل كثير من الناس عن معنى الشعر في جوف الشاعر ، وعن الدور الذي تسمو به هذه المَلَكَة بنفس الشاعر وكيانه ؛ ليميز دوراً وأداءً ، ويميز عن الجمهور برسالته التي تتبع من الأصول الآتية :

١- الفهم السليم :

يخطيء البعض إن ظنوا أن الشاعر هو آلة تصوير ، يذكر الحديث بقلب شعري له رونق خاص ، ومن الخطأ المحض أن نقصر دور الشاعر في الحياة على تسجيل الوقائع وأرشفتها ، فلم يخلق الشعراء لهذا ، ولم يودع الله فيهم أسرار قوة المنطق والبلاغة ليفهموا الحياة بصورتها المجزوءة المهزولة.

بتصوري ، الشاعر بمهاراته وقدراته يسد مسد الإعلام العام ، فهو وريث الرسل في فهم الحقائق وهضمها ، ودراسة المجريات وتقليب الرأي فيها، وصهر المعرفة في شكلٍ حكيمٍ يخيّطه بحروفه العذبة ، ليحرك القلب والعقل بإلقائه الهادف .

وإني لأعيب على رجل آتاه الله العقل ، وزين دربه بالفهم ، واستنارت بصيرته بالمعرفة ، ثم يشطب ذاته ، ويلغي دور عقله ، ويتقهقر إلى حضيض الهائمين الذين عرفوا الشعر طريقاً موصولاً إلى الشهرة أو المادة،

فأمعنوا في المديح بحق وبغير حق ، وصار القلم الشريف يحابي ويرفع من هم أهل الوضاعة والدناءة ، وبذلك بات الشاعر أداة يقَلِّبها ذوا النفوذ والمصالح والمطامع ، وفقد هيئته وذاته ، ونزل بمحض إرادته عن سلم الدور الريادي في أمته (١٣).

لن أعم ، لله الحمد والفضل ، فقد وهب أرض الإسراء رجالاً تبرد الشمس ولا تبرد عزائمهم ، وتفقد الأرض جاذبيتها ولا يفقد نظمهم جاذبيته، أولئك هم حراس العلم الحق ، وأتباع الديانة الرصينة ، وبلغاء الأمة الذين يستحقون أن يظلوا في رأس هرم الصدارة ، ينظر إليهم الناس بعين الوقار والإحترام .

ولعل دور الشاعر لا يقل أهمية عن دور وزارات التخطيط والإعلام والدراسات مجتمعة ، فهذه كلها من لبّ وظيفته ، وهي مكملات رسالته النهضوية ، فهو في الوقت ذاته دارسٌ باحثٌ مخططٌ إعلاميٌّ بارع .

٢- بعث الأمل :

حين نخصص الحديث عن مسرى رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فإننا نترك لذهن القارئ أن يستوعب - إن استطاع - حجم الإبتلاء اللاذع،

^{١٣} دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي ، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة - مصر ، الطبعة الأولى (١٩٩٥ م) ، ص ٣٢ .

والدسائس المغرضة ، والفتن المترابكة ، التي نزلت بهذا الشعب الصابر المحتسب .

لذلك ؛ فإن دور الشاعر في الحياة أن يكون منارة الأمل ، وصوت التوجيه، وصانع الحكيم والثوابت بقوالب العزة ، وهو حصن أمام الفتن ، وسدّ منيع أمام أمواج التغريب والاستشراق ، وهو قبل ذلك وبعده : صاحب رسالة سامية ، يذود عن الحمى ، ويحيي الضمائر إذا جفّت ، ويرفع الهمم إن أوحلت ، وينتشل الأمة بوعيه وقصائده إذا ارتكست .

وشعبنا له باع طويل في الصبر ، وله من التجارب ما يؤسس للمخزون العلمي والذهني الذي هو قاعدة العمل الكفاحي ، وإن حكمة الله تعالى قد اقتضت أن يعيش هذا الشعب بين فكي الرحي ، يقاسي الأمرين تحت وطأة احتلال غاشم مرعب ، وتخلّ عربي مفرط ومفرط ، وهذه من روائع تدبير الله الحكيم ، فهو الذي قال في سورة محمد : ((ذلك ولو يشاء الله لانص منهم ولكن ليلوا بعضكم بعض)) (١٤) .

ومن سمات الخصم أن يجد له أعواناً يخدمونه في تمهيد الطريق ، وشطب ذاكرة العدا من قلب الأمم المستضعفة ، واستئصال شأفة العمل الجهادي المقاوم ، وهنا ينبري لسان الشاعر الحق في فضح أعوان الشيطان

١٤ . سورة محمد / الآية : ٤ .

وأولياءه ، ولا يترك لهم أرضاً يفترشونها ولا سماءً يلتحفون بها ، فيشل دورهم التخريبي ، ويعطل تأثيرهم بوعيه وحصانته وحكمته ، وبالتالي ؛ يشكل درع الصدّ الأول أمام هجمات أعداء الله والأمة ، لينتقل من بعدها إلى رأس العدو المباشر .

وإن من مهمة الشاعر في أرضه ووطنه أن يزرع بين أحشائها بذار الأمل ، حتى إذا سمت داخله ، وصارت ظلالها وارفة أفاض بها على المجتمع ، فالشعر كالكأس متى امتلأت واستوعبت ما فيها لحدّها الأقصى ؛ كان الإشباع ، وبعده .. فإن الكأس تفيض بما فيها من خير عميم على من حولها .

وهذا المعنى قديم حديث ، والمصاعب والمشاكل متلاحقة ، ما صفت في زمن نبي مرسل ، كيف وقد طغت النفوس ، وهزلت الضمائر ، وناحت غربان الخراب فوق جنان قد أصابها المحل والقحط .

فإذا امتلأ صدر الناس باليأس واعتراهم الإحباط لفترة ما ، كان على الشاعر أن يشعّ بالأمل من بلّورة أدبه ، وإن دهمه القنوط والتراخي ، زمجر الشاعر بالإرادة والعزيمة المتوثبة ، ليقلب السحر على الساحر ، ويفلّ حديد الاحتلال بفولاذ القوة المنهمر من كلامه الموزون (١٥) .

١٥ انظر : أسطورة الإطار - (دفاع عن العلم والعقلانية) ، كارل ر. بوبر ، ترجمة أ.د. يماني طريف الخولي ، مطابع السياسة - الكويت ، طبعة عام ٢٠٠٣م ، ص ٩١ .. وفيه حديث طويل عن هذه الجزئية لمن أراد الاستزادة .

تحت هذا اللواء الشامخ ، كان لا بد للشاعر أن يكون عقائدياً حتى
يبدع ، وإلا ذهب الشعر ما بين هَمَل الأمة ومخنثيها ، يتلاعبون به في نوادي
السمر ، ومجالس المفاخرة البغيضة ، ليضحى جسداً بلا روح وله خوار ..

فينبغي للشاعر أن يغوص في بحار المبادئ خوضه في أبحر الشعر ،
فالشعر وسيلة لا غاية ، والمبدأ غاية لا وسيلة .

ما أجمل أن يتجلى الصراع بعد فهم عميق وشمولي ، تجد فيه أهل
البلاغة الشعرية ينسابون مع كل خفقة في قلب أقلامهم ، يؤكدون دلالات الوحي
الساوي ، يعلمون الناس حقيقة المعادلة ، بعد أن تشربت أرواحهم قول الله
تعالى : ((أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ
مَسَّهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَنَى نَفْسُ
اللَّهِ إِلَّا أَنْ نَضِيَ اللَّهُ قُرْبَى)) (١٦) ، وأشرأبت أعناقهم للأمل الذي بثه رسول
الله في حديثه الشريف : " والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب
من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم
تستعجلون " (١٧).

١٦ . سورة البقرة / الآية : ٢١٤ .

١٧ . رواه البخاري .

إن الواقع الفلسطيني ليحتم علينا أن ننتبه بكل إحساساتنا ومشاعرنا
لئلا يتدفق اليأس إلى أعماق القلوب ، وإلا خسرت المعركة بعد عشرات السنين
التي علمنا الدنيا فيها دروس الصبر والمصابرة .

وقد حذر علماء الأمة من تفشي هذه الظاهرة الماحقة ، وسطروا من
الكتب والمصنفات والمباحث العلمية ما شكل أساس الوقاية من هذا المرض ،
ومن ذلك ، ما قاله الشيخ أحمد بن صالح السديس : ((ظهر في الناس يوم
اليأس ، وفقد الكثيرون الأمل، وكانت مصائب الأمة ونكساتها وحروبها
وانهزاماتها سبباً في أن ينظروا إلى واقعهم بعين السخط والتشاؤم ، وأن يغضوا
الطرف عن أسباب النصر وبشائره ، فخارت منهم القوى ، وتمكن منهم العدى ،
وما أحوجهم إلى استنطاق التاريخ وقراءة النصوص ، ومعرفة البشائر ، وليس
ذلك ليركنوا إلى الأمانى ، ويسلكوا درب التواكل ، ولكن ليهتدوا من القوي ،
ويأخذوا بالأسباب والوسائل في عزم صادق ، وجهد متواصل وفاعل ، بعيداً
عن اليأس والقنوط ، الذي هو أول الانكسار ، وبداية الإنهزام .

يكفي العدو من الغنيمة : اليأس والانكسار ، ذلك أن من يئس من
النصر لم يعمل من أجله ، ومن رضي وقنع بالذل ؛ طال لبثه ومكوته فيه (١٨)..

١٨ . انظر : مجلة البيان ، لندن ، العدد ١٨٨ ، السنة الثامنة عشرة ، ص ١٨ ، مقالة
الشيخ أحمد بن صالح السديس .

الهجمة الدولية بحاجة إلى جهد مركز

رُعيَ مبدأ الهزائم الموجهة ، والدسائس المبنوثة من قبل الغرب وأذنايه، وإشتدت الهجمة شراسة مع بروز قرن التسويات السلمية المطروحة ، ومن قرأ الوثائق السرية التي أقيمت عليها هذه الإتفاقات ؛ أدرك بوضوح تام مدى تكالب الشرق والغرب من أجل وأد جذوة المقاومة والصمود في فلسطين، وإستدراج المنطقة بأسرها نحو وحل التطبيع والتأقلم ما بين الضحية والجلاد ، في استهتار صريح بكل مبدأ وأساس وبرهان ، وفي صدام مباشر مع كل عقل راجح سوي .

فقد وقفت أمريكا بخيلها وخيلائها خلف مشروع العدو^(١٩) . ودعمتها الدول الأوروبية التي أذعنّت أمام أعاصير التهويد وليّ الأذرع الذي تجيده راعية مشاريع استئصال شافة العزيمة من هذا الشعب المجاهد^(٢٠) .

^{١٩} . انظر في الوثائق الواردة في مجلة : السياسة الفلسطينية ، العدد الثالث والعشرون، السنة السادسة ، صيف ١٩٩٩ م ، مركز البحوث والدراسات الفلسطينية - نابلس ، ص ٢٠١ ، خطاب بوش إلى القيادة الفلسطينية .

^{٢٠} . انظر: المرجع السابق نفس العدد ص ١٩٨ - ١٩٩ نص وثيقة الاتحاد الأوروبي في قمة برلين ، وكذلك : المسار ، محمد أحمد الراشد ، دار المنطلق - دبي ، الطبعة الثالثة (١٩٩٩م) ، ص ١٤٨ - ١٥٠ ، ففيها زيادة تفصيل وتحليل .

كل هذه الحقائق تدعنا نبرمج أوراقنا ، ونرتب أجندة صمودنا ، ليقف فيه السياسي المحنك ، والأديب المبدع ، والمكافح المجاهد الصدوق ، والشاعر البار ، في صف واحد ، يرفعون سيفاً واحداً ، تبدؤه الكلمة ؛ لتسير في ركابها الطلقة ، ليشكل هذا الشعب الخنجر الذي يغرز في خاصرة كل غاصب ومتآمر .

ومع إشتداد الهجمة ، وضراوة الإقتتال ، وإنجاس شلال الدم ، استوحش العدو بمجازره التي تعيي من حاول إحصائها ، ولكن الشعب الفلسطيني بالمقابل ؛ اكتسب موهبة الصمود التي هي أساس عملية التحدي ، والفلسفة الحقيقية والمنطق المعاصر يقتضيان أن تسوق المقدمات الحقيقية السليمة إلى النتائج المبتغاة السليمة .

سل إن شئت كل بيت في المدينة ، أو المخيم أو القرية ، أو الأرياف والبوادي ، الكل تجمعهم صفة واحدة ، كلهم تحت خط الفقر وتحت خط النار يشربون العلقم ، ولكنهم يبصقونه في وجه الصلف والتعنت الصهيوني^(١) .

ويبقى هذا الشعب الصخرة الشماء التي ستكسر أمواج التحالفات الدولية والإقليمية والشرق أوسطية ، التي تأتلف خلف بيوت العنكبوت ، ليخرج

^١ . ارجع إلى : مجلة الدراسات الفلسطينية ، مؤسسة الدراسات المقدسية - القدس ومؤسسة ومؤسسة الدراسات الفلسطينية - بيروت ، الطبعة الفلسطينية ، العدد ٥١ ، والعدد ٥٢ ، ففيهما مقالات وشواهد واسعة جدا تناولت بعض مظاهر العدوان في ظل إنتفاضة الأقصى فقط.

من بعد كل محنة أقوى عوداً ، وأصلب معدناً ، أما مصير هذه المؤامرات العارمة ، فهي إلى دوامة الاحتضار التي بدأت تدور ، فلا أمريكا ستوقفها ، ولا أوروبا ستمحوها ، ولا كل التحالفات ستمنع الشمس من الإشراق (١).

وعندما نخوض هذا الصراع بفكرنا وساعدنا ، فنحن نعلم حجم الهجمة ، ونذكر كل التوازنات الدولية والإقليمية التي تقف خلف الكيان الغاصب، بل وساعدته ودعمته في أروقة المؤسسات الدولية (٢) ، أو أيام ميلاده الأولى (٣)، ونعلم علم يقين عن سيول المال المتدفق من أساطين العالم المتحضر (٤) كما يسمون أنفسهم ، كل ذلك إنما هو زادٌ لنا لا مثبِّطٌ لعزائمننا ، وقد أقسم شعبنا بكل طاقاته أنه سيخوض الملحمة حتى النهاية ، حتى إذا هدمت البيوت : سكن الخيام ، وإذا جاع : عجن تراب أرضه وأكله ، وإن عطش : فسيعصر الصخر ولايقبل الظماً .

١ . انظر: JERUSALEM POST ١٧/٧/٢٠٠٣م ، الصفحة الثالثة ، تقرير التعاون الدولي ، بقلم Douglas Davis .

٢ . انظر : الوثيقة السرية لمعاهدة سايكس بيكو في كتاب : ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم ، أمين محمد سعيد ، مكتبة مدبولي - القاهرة ، الطبعة الأولى - عام ١٩٩٩ ، ص ٤٠٤ - ٤٠٦ ، وهي بداية خطوط المؤامرة الدولية في فلسطين .

٣ . ارجع إلى كتاب : دور بريطانيا في تأسيس الدولة اليهودية (١٨٤٠ - ١٩٤٨م) ، د. عبدالفتاح العويسي ، المركز الثقافي الإسلامي - الخليل - فلسطين ، الطبعة الأولى: (١٩٩٨) .

٤ . هناك موضوعات مفيدة في كتاب : الصراع السكاني في فلسطين ، للدكتور الشهيد: إبراهيم أحمد المقادمة ، الطبعة الثانية ، ص ٣ - ٥ .

نحن نستوعب كل هذا الجهد ، ولكن الحكمة تقتضي أن نعلن النفير العام ، وندق أجراس اليقظة ، ونسهم في تعبئة الأمة وتوجيهها بعمل مدروس مبرمج حازم.

الواقع التعليمي في فلسطين

الإحصائيات والأرقام الناطقة أبلغ مثال يستضاف في هذا الشأن ، فالشعب الفلسطيني عاش أزمنة ودهوراً في الزمان الغابر والوقت الحاضر، كان فيها بؤرة تصدير للكفاءات والقدرات والعلماء والأدباء ، وعائلة بني قدامة وحدها أكبر دليل على ذلك .

ففي أزمان العهد الإسلامي الأولى ، عمّت إنتفاضة علمية أرجاء العالم الإسلامي ، استمرت تتضخم وتثخن سناءً يوماً بعد يوم ، وكان الإسلام- مهد العلم وراعيه - يفتح عقولاً قد غلقت ، وأذاناً قد صمت ، وقلوباً ران عليها حب الدنيا والركون إلى ملذاتها وشهواتها ، فوجه الأبصار إلى إهاب الكبرياء ، وأسبغ على العقول فهماً صافياً ، وتصوراً شمولياً عن الإنسان والكون والحياة ، مما جعله ينطلق بخطى ثابتة نحو علمٍ مؤصلٍ مبني على فهم سليم .

وجاءت الدولة الأموية ، والدولة العباسية ، ومنزلة الأدباء والعلماء والشعراء في علو وسمو مستمر ، حتى صارت دور الخلافة منارات علمية وأدبية يجتمع فيها العلماء والشعراء ، والتاريخ الإسلامي يذكر الروايات تلو الروايات والشخص تلو الشخص في هذا الجانب العامر.

من ثم ؛ جاءت الدول متتابعة وأخذت العلم فترةً وشرّةً ، وأخذ يسمو وينكمش ، وبانت الظروف السياسية تغلّف الطابع العلمي ، حتى وصلت الأمة

إلى نهايات الدولة العثمانية ، حيث شهد جسم الرجل المريض أوبئة بكتيرية وعضوية فتاكة سرت في أرجائه ، فتوالت المؤامرات والخيانات ، وتغلغل الدهاقنة إلى داخل دائرة صنع القرار ، فكثرت الزوايا الصوفية ووجدت حالة من الانعزال، وتقهقر مارد العلم في النفوس ، وعاش العالم لحظات ترقّب لما سيجري من وقائع وأمور .

في هذه الفترة ، كانت فلسطين بؤرة الصراع الحقيقي ، فهي الهدف الأول للأطماع بعد تقاسم تركة الرجل المريض بعد أن مات ، أضف إلى تاريخها ما مرت به من حالات الاحتلال المتكررة والعارمة ؛ والتي شلت التفكير ، وزلزلت الوجدان والعقل .

خلال هذه الفترات ، شهد العالم العربي والإسلامي انهزاماً نفسياً شديداً ، وانتشرت فلسفة التّحيّ والأنزواء ، وشاعت حالة من الفوضى في التعليم والاستهتار بأروقة الدراسة ونصوص الأدب ، وفلسطين جزء من هذا العالم ، اعترأها ما اعترأه ، فكانت فترة ما بعد هدم وزوال الخلافة الإسلامية مرحلة قحط علمي على مستوى الوطن العربي عموماً ، وفلسطين على وجه التحديد ، مثلها جميل الحسيني أبلغ تمثيل في ذلك الحين بكلمات موجزة تصف الحال (١) .

^١ . انظر : تاريخ فلسطين الحديث، د. عبدالوهاب الكيالي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ، الطبعة العاشرة (١٩٩٠) ، ص ٦٥ .

وجاء الاحتلال البريطاني ، وأغلقت المدارس مرات ومرات ، وكانت فترات الإغلاق طويلة ؛ استمر بعضها قرابة السنة ، وهذا انعكس على الوضع التعليمي في وقت غفل عنه المواطن وانتبه إليه المحتل.

وخرج البريطانيون على رؤوس أصابعهم ، وتولى الصهاينة مواطني القوة والتأثير في البلاد ، وعربدوا بقوة البارود والسلاح ، وانتفش العرب بقوة زائفة ، فقُهرُوا وذُلُّوا حين حكموا الهوى ومبدأ الإنسان ، وهجروا درب الرحمان .

هذا الواقع المرير ، من النكبة والنكسة والإنهزامات المتتالية ، أرى بظلاله السوداء على المجتمع الفلسطيني ، وعلى المستوى التعليمي بشكل خاص والإحصائيات موجودة مثبتة (٢).

استمر الحال على ما هو عليه حتى منتصف الثمانينات ، حين انتبه العلماء إلى وجود المخطط بحجمه وشكله الواضح ، فنفضوا عنهم غبار الماضي، وجعلوا من أنفسهم قدوة صالحة ، إضافة إلى استثمار منابر الجمعة للتأثير على المجتمع ، ولم تشهد الساحة الفلسطينية ما يمكننا اعتبار صحوة علمية إلا في الثلث الثاني من الثمانينات ، حيث بدأت الجامعات الفلسطينية تخرج كوادرها التخصصية، وافتتحت كليات الشريعة ، والآداب ، والعلوم الإنسانية والإدارية ، وصارت بضاعة العلم رائجة ، وأصبح الشباب الفلسطيني

^٢ المرجع السابق ، ص ٣٧٩ و ٣٨٠ ، يرجع لها هناك .

منكباً على تحصيل العلم بمختلف أشكاله ، فتعاون متخصص الشريعة مع الأديب مع الشاعر مع خريج الإدارة ومختصي الاقتصاد ، حتى شكلوا بمجموعهم : الطاقات قاعدة علمية تصلح للاتكاء عليها.

نحن في سردنا التاريخي هذا لانقف عند هذه النقطة ، فمن ذا الذي ينكر دور التخصصات العلمية والفنية والتخصصية التي باتت تفتتح أبوابها كل عام ؟

من يستطيع أن يطمس حقيقة الدفعات السنوية التي تستوعب المئات من طلبة الدراسات العليا (الماجستير والدكتوراة) التي غدت حقل تنافس بين أبناء هذا الشعب المثابر.

فها هي الإحصائيات الحديثة تشير إلى أن الشعب الفلسطيني قد تجاوز خلال العودة المجتمعية إلى مقاعد الدراسة مرارة المراحل السابقة ، وسدّ العوز الحاصل في المجالات التي كانت تفتقر إليها أولويات الصراع ، من تخصصات الإدارة والإعلام ، والسياسة والدراسات الإسلامية والعربية المعاصرة ، التي أفرزت تلقائياً مختصين في مجالات دقيقة ، تسلموا زمام المواجهة بالعمل الذي نالوه فيها، وبخاصة : بعد الدرجات العليا ، والاختصاصات المتنوعة الشاملة .

وبالتزامن مع هذه النهضة الحضارية الشاملة ، كانت كليات اللغة العربية في الجامعات الفلسطينية بتخصصاتها تصدر في كل عام كوكبة من

المختصين ، ناهيك عن العقلية التي درست فنونها ، وعلى وجه التحديد -
الشعر - في الجامعات العربية الأخرى ، ليكونوا قاعدة العمل الأدبي ، وليبدأ
كل واحد منهم مشوار العطاء في الفن الذي تخصص به.

بالحديث هنا عن الجامعات وما دعمت به المجتمع الفلسطيني على
الصعيد الأدبي ، يمكن لنا أن نتحدث في الوقت الراهن عن كفاءات ذات مهارة
عالية ، وخبرة وفيرة ، وقابلية واسعة للتأقلم مع متطلبات المجتمع من حولها ،
هذا عدا عن المختصين من ذوي الشهادات العلمية العالية ، الذين باتوا بمثابة
النقاد للأعمال الأدبية ، يوجهون مسيرة العطاء بالنصح المنهجي ، والمساهمة
الصادقة الإيجابية ، والنقد البناء .

إن الكفاءات العلمية التي وجدت وصنعت عبر أعوام وأعوام ،
ساهمت بالفعل في توجيه التخصص العلمي ، وتبصير العناصر الطلابية ذات
الكفاءة بأهمية الفنون الأدبية ، فتوزعوا بعد استيعابهم في الجامعات الفلسطينية
على امتداد الوطن في طواقم التدريس في الجامعات ، ليكونوا مشرفين مباشرين
على العطاء يقيمونه ويقومونه .

وبين مدّ الصحوة وجزر الاحتلال ؛ صقلت شخصيات الأدباء ، وبان
وصف الشعراء ، وتميزت شخصية الشاعر الفلسطيني بطبيعة لفظه ، وأسلوبه ،
ومعطيته ، ولونه الخاص في الإبداع الأدبي ، الأمر الذي رشحه لمكانة سامية
تجمع بين الأدب التخصصي والواقع النثري ، والمسؤولية التاريخية.

دون أدنى شك ؛ فإن الشعب الفلسطيني على الرغم من صغر المساحة الجغرافية التي يشغلها ، والظروف القاهرة التي ألمّت به ، استطاع أن يكسر الطوق، وأن يمضي بإرادة متوثبة نحو غايته ، فكان من الشعوب الرائدة علمياً بحسب الإحصائيات الدولية ، لا سيما في العقد الأخير ، حيث ارتفعت نسبة المتعلمين بالمنحنى صعوداً بارزاً ، مما سيخلق جواً آخر ، غير الذي خاضه الشعب سابقاً ، فالعلم سلاح فتاك أمام هجمة الاستعماريين الجدد.

الأدب الشعري بين الماضي والحاضر

حين نأتي لعمل مقارنة بسيطة ما بين الماضي والحاضر ، في أي مجال ، سنلمس فارقاً تحدده الضوابط والمقاييس التي اعتمدها ، وحين نخصص البحث بين الواقع الشعري في العصر الحديث وتراثه الخصب في الماضي؛ فإننا سنضع أنفسنا وسط جلبة التعجب والدهشة ، فالفارق عجيب ، ونقاط حصره تطول .

بيد أن العقلانية والموضوعية والواقعية يفرضون علينا أن نضع الموازين بالقسط ، وأن نستوعب في إصدارنا للحكم المعطيات المحلية والإقليمية والدولية حتى لا نجانب الصواب، ولا نهضم حق شعب له في الفضل والعطاء باع طويل .

على عكس ما سيظن البعض أنني سأحاول طمس بعض الحقائق أو تغييب بعضها محاباة لشعبنا ، فهذا الحديث عار عن الصحة ، ولن أستند إليه ضمن التسلسل الموضوعي والحديث المنطقي الذي انتهجته.

فنحن لا نطلب من الشعب الفلسطيني أن يجاري شعر الأطلال ، فظاهرة الأطلال من رحم التاريخ الذي مضى ، وهي ظاهرة ترتبط بالواقع الذي يعيشه الشاعر في زمن قد درس .

لن نطلب من الشاعر أن يبدع في الغزل الشعري بينما تدوس
مجنزرات العدو حديقة بيته .

لن نحاسب الشاعر بمقارنة شعره مع شعر الموشحات الأندلسية ،
فتلك لها طابع الترف وحياة السمر ، الأمر الذي حرم منه شعب فلسطين ولم
يتذوقه على مدار حياته.

فإن أردنا الإنصاف : فلن نخضع الشاعر الفلسطيني المسلم للموازن
النقدية التي حُكم بها على المقامات الشعرية التي ابتكرها بديع الزمان الهمذاني
في القرن الرابع للهجرة ، ولا للشعر الصوفي في عصر المماليك ، فكل زمان
له من الظواهر الأدبية والشعرية ما يحكمه ، من حيث الواقع السياسي ، أو
الأمن الشخصي والاجتماعي ، أو التفاعلات الاجتماعية والسياسية والتاريخية
والدينية وعوامل الذوق الأدبي السائد .

وليس من العدل أبداً أن نحكم على قوة البناء اللفظي ، أو جزالة
الألفاظ وعراقتها كما كان الشعر في العصر القديم ، فالشاعر الفلسطيني تسلّم
تراث الضعف السابق ، وهو يحاول استنقاذ الواقع ، وانتشال اللغة إلى مرتبتها
التي تليق بها ، ثم إن الشاعر - وهو قادر في أغلب الأحيان - لو كتب
بالمصطلحات العربية التي عرفها العرب القدماء - لم يفهمه أحد ، فالبيئة
بعمومها أصابتها آفات الوهن اللغوي ، وشابتها شائبات الواقع الأدبي الذي انحط
بجوهره قبل عصرنا هذا .

على كفة الميزان الأخرى ، فإن للشاعر الفلسطيني دور وإسهام حقيقي في بث طعم ولون وذوق خاص للأبيات والقصائد الفلسطينية ، فقد سبق الشاعر الفلسطيني - بكمّ الحوادث التي امتلكها تاريخه واحتشدت في ذاكرته - بالفعل الشعر الذي أُلّف في ما يسمي بشعر " الثورة العربية الكبرى " ؛ التي أدرك العالم بأسره ومن صفقوا لها بالأمس أهدافها ومراميها ، والنزعة التي حكمتها وآزرتها ، وأقرأ عن ملاحم وبطولات الشعب الفلسطيني ضد غزاته ؛ تجد الصدق مع الرونق ، والحرف الذي يسنده الدم ، والكلمة الممزوجة بالمشاعر ، وأين الثرى من الثريا .

ولو جننا لشعر الفتوحات وما كتب في فتوحات الشام ؛ لوجدنا أن الشعر الفلسطيني الحديث قد واصل الرواية بشعره للفتوحات ، والشام لا زالت شاماً ، والعقل لا زال يبدع ، ولكنها مجريات جديدة ، وصبغة جديدة ، وفنّ مستحدث ، مع قضية محورية اتسمت بها الموضوعات ما بين فتوحات الشام وفتوحات الدم الفلسطيني .

أما الشعر الصوفي .. فقد قلبه الشعب المجاهد إلى شعر حركي ديني نابض ، يتناول الوعظ وتربية الروح جنباً إلى جنب مع ضرورة الفهم الحركي للمرحلة ، وأبجديات العمل المقاوم ، وسخر الشعراء كل طاقاتهم في بيان رذائل الاحتلال ، ورذائل الصمت العربي المدقع ، ومجدّوا أهل المواقف التي لا

تنسى، والرجال مواقف ، ولا يجدي أن نعبئ الناس روحانياً والسيوف ممدودة
على رقابنا !!

للقوف على الحقائق ، فقد أبدع الشاعر الفلسطيني في العصر
الحاضر لوناً مميزاً في الشعر العربي ، حيث دعمه بمجالات جديدة في وصف
الواقع ، والمصطلحات الواقعية المستحدثة ، والمشاريع الممزوجة بالكلمات
النازفة ، وبذلك باتت القصائد الفلسطينية ، والاتجاه الذي اتجهه كل شاعر :
تمثل أساساً لمدرسة شعرية مستحدثة ، سيأتي زمانٌ تفهمها وتقديرها التقدير
المناسب.

بكل موضوعية ، لا أتوقع أن يطالبنا عالم الشعر العصري ، أو
مختصو النقد الشعري من العرب والأعاجم أن ننحى منحى المدارس الأدبية
الأولى ، وإن كان لكل شاعر ميدان يتأثر فيه بالقدماء ، فنحن لسنا في مدرسة
الديوان ، ولا في مدرسة أبوللو ، ولا في مدرسة المهاجر.

نحن نعلم أبناءنا أن يبحثوا عن ذاتهم في إطار مواهبهم ومقدرتهم ،
ومناهجنا الدراسية تفر صراحة بما ندعو إليه ، ومن أبصر ما يكتب عرف ما
يقصد ، حيث جاء في مناهج الدراسة الفلسطينية : ((كان لا بد - وقد رفض
الشعراء الشبان عقب الحرب العالمية الأولى - أحلام العربي الرومانسي ،

وخيالاته ، واتجهوا إلى واقع جديد ، يغيرون به عالمهم في مضمون جديد ، أن يبحثوا عن إطار للقصيدة العربية يتلاءم مع المسؤولية الملقاة على عاتقهم .(٣)

معركة أدمغة وثقافة

من العبث أن نهدر الوقت في ذكر الشواهد والأمثلة على أن ساحة المعركة مع العدو الغاصب مشرعة الأبواب ، فمن لا يسمع هدير الموت وصاليل السيوف والكراع والحلقة فهو عيي لا بد له من طب .

فمن سنن الحياة أن تلجأ الشعوب المقهورة والمضطهدة إلى تحصين نفسها بسلاح يمكنها من خوض المعركة ، وإن مثل هذه الشعوب وتدثرها بالثقافة والعلم ليس بصدفة ، فالصراع قبل أن يكون محتدماً بين الفيالق والجحافل ، فإن ميدانه الأول هو العقول والقيم والمبادئ (٤) .

من هنا ؛ دأب العدو المتسريل بأسلحة الدمار الشامل على اختراق ثقافة الشعوب الأصيلة ، وضرب البنية الفكرية فيها حنقاً وتعسفاً ، أو عبر دسائس مشبوهة تحاول الوصول إلى كبد الأدب والثقافة لتحرفها عن مسارها ،

٣ الأدب العربي الحديث للصف الثاني ثانوي العلمي والأدبي ، وزارة التربية والتعليم - رام الله ، طبعة عام ٢٠٠٠ ، ص ١٢٣ .

٤ انظر : الإسلاميون الفلسطينيون والقضية الفلسطينية (١٩٥٠ - ١٩٨٠) ، د. بشير موسى نافع ، مركز فلسطين للدراسات والبحوث - غزة ، ط ١٩٩٩ ، ص ١٢ - ١٣ .

فيصبح الشعب وكأنه بات على ظهر سفينة قفز منها الربان ، فأين يا ترى ستحط الرحال !؟

لهذا ؛ كان لا بد لشعبنا وطاقاته الفكرية والأدبية أن تحشد إمكانياتها في مواجهة هذه الهجمة النكراء^(٥) .

الحاجة هنا مستمرة ، ولها صفة الديمومة ، ولذلك فقد كان من الواجب إرساء دعائم الفكر والثقافة في المجتمع بالفعل والقول ، ورسم سياسات المواجهة لتفهم الأجيال الحالية واللاحقة طبيعة المرحلة ، وظروف الكفاح ، ومكائد العدو ، وإخلاص الثائرين^(٦) .

وقد برع في الأدب الشعري كمّ من الشعراء ضمّنوا قصائدهم حِكَم الثبات ، وأسس الصمود ، ورفعوا مع كل رويّ راية للفهم الأصيل المستقى من التصورات المقتبسة من ديننا الحنيف ، وتاريخنا الزاخر ، وأعرافنا الموجودة .

^٥ المنهج الحركي للسيرة النبوية ، ص ٣٥٨ - ٣٧٠ ، بيان دور الشعراء في المعركة .

^٦ مجلة البيان - لندن / ص ١٨ - ورد سابقا تعريفها.

الإسلاميون رأس الحربة

بكل ثقة ، فإن الإسلاميون استنفذوا عصارة التجارب ، وحازوا من الخبرة والمهارة وفنون التنظيم الداخلي والمجتمعي ما جعل كل طاقات الإبداع تتألق فيهم ، وكل مصابيح الفعل والتأثير تتوهج في محاجرهم بقوة ، وقد أفرزوا في مراحل الصراع الممتدة نبذة رائدة من أهل الأدب والأسلوب الشرعي ، بل من كبار الشعراء الفلسطينيين ، الذين كان لهم دور ريادي في حلبة الصراع المحتدم .

وقد عبر الشيخ المجاهد أحمد ياسين عن تاريخ المقاومة ونشوئها وتطورها وإمكاناتها في أكثر من موقع ، وفي غير صحيفة ، من أهمها ما صرح به في كتاب " أمة تقاوم " .^(٧) حيث أسهب وبيّن وأجاد ، وترك الناس في ميدان الحرب الفكرية على محجة بيضاء .

يمكننا أن نحتفي بسلاح العلم والمعرفة الذي أشهره شعبنا الصامد ، حيث جعلوا منه كما وصف الدكتور يوسف القرضاوي : ((أنه يسبق العمل ، ويدل عليه ، ويرشد إليه))^(٨).

^٧ أمة تقاوم ، أسامة عبدالحق ، تقديم د. أحمد الدجاني ، مركز فلسطين للدراسات والنشر والبحوث - غزة ، الطبعة الأولى عام ١٩٩٩ ، ص : ١٣ .

^٨ الحياة الربانية والعلم - " سلسلة في الطريق إلى الله ، د. يوسف القرضاوي ، مكتبة وهبة - مصر ، ط ١ ١٩٩٥ م .

فلا بد من قياس الخطوات ببعدها النظري ؛ قبل أن تتم ممارستها بشكل عملي تطبيقي ، وهذا سر من أسرار القوة واليقظة وحسن إدارة الصراع.

جميل أن ندرك هذه الأساسية ، ولكن الأروع : أن نبادر إلى إيجاد أساسيات الوعي الثوري الذي لا يعفي أحداً من المسؤولية ، ويكون به استيعاب كل طاقة وموهبة تحت إطار العمل الكفاحي النابض .

ومن بدهة القول : أن أعز الرجال وأكبرهم مكانة عند الله وعند الناس ، هم أولئك الذين يقارعون الباطل بجبروته وقرقته وجلبته ، فيكشفون صدورهم أمام الموت ، ويتحدون بالفكرة لهب الفكرة ، ويردون الباطل بألف حجة للعقل والمنطق ، وهم بذلك يملكون صك الانتماء التاريخي ، ويفهمون معطيات الحل الديني ، ويسترسلون في عطائهم الأدبي ليحطموا أصنام الطاغوت البشرية ، ويفضحوا أسارير الأذيال من (آباء رغال) هذه المرحلة .

يقول الأستاذ الموجه محمد الراشد : ((جميل ذلك ، فرضاً لا يصح إسلام المرء إلا به ، أو زيادة تغرس التصديق وتعمق اليقين ، ولكن أعالي الجنان خلقت لتكبير عريض الأصداء ، قوي النبرات ، في وجه كفر ظالم ، يعيد اعوجاج الحياة إلى استقامة ، فليس صعباً أن تظم النفس عن مألوفاتها سويغات في ذكر الله تعالى منعزل ، وتأمل ساكن .

إنما الصعب أن تكبر والأصن أم تُرعى وأمرها مأتي ((^٩).

فما أسهل أن تتشدد وتتكلف الكلمات في بيئة الانفتاح ، وتملاً الدنيا صراخاً وخطباً ، حتى إذا حمى الوطيس ، وتعمقت دوامة الابتلاء ، ووضعت على المحك ، تواريت على الأنظار ، تحت المثل المحطم : احفظ لسانك عند مخالفة الدول !! ولكن الثابت المخلص هو من كل عطاؤه في الرخاء جـدولاً ، وعطاؤه في الملمات محيطاً ، حتى لو سمع كل التهديدات^(١٠) من خصومه، أو أحاطت به رصاصات الموت من كل جانب .

^٩ . المسار ، ص ١٩٧ .

^{١٠} . ارجع إلى الصحف العبرية الرئيسية الثلاث (يديعوت أحرونوت ، معاريف ، هآرتس ، الصادرة بتاريخ ١٣/٦/٢٠٠٣ م لتري على صفحاتها الأولى حرباً معلنة على كل ما هو فلسطيني ، وهذا مثال من أمثلة .

محاوّر التأثير في الشعر الفلسطيني

يتأثر الشعر الفلسطيني بمجموعة من العوامل التي تمس صلب تكوين القصيدة ، وطريقة التعامل مع بنائها وكيانها الخاص ، ومن أهم هذه العوامل :

أولاً: شلال الدم المهرق .

مواكب تتقدم ، ودماء تتكلم ، وأشلاء تنتثر ، وأدمغة تتطاير ، وأحشاء تُقَاء من الصدور ، إنها ساعات الكرامة ، إنها عصور الرفعة ، إنه الدم الذي يدفع ضريبة الفخار ، وقسطاً من أفساط النصر ، والعدو لا ولن يريح المعركة (١١) .

فلسطين .. ماذا أقول وقد فداك بنوك بالغالي والنفيس ؟ يتدفقون نحو محاريب الشهادة ، يتزنون بالموت والنواسف والرصاص ، تتكلم في أيديهم القنابل ، ويصوغون من وحي إرادتهم مداد الثورة القاني .

إذا تحدثت متحدث عن الموت والدمار ؛ فتذكر فلسطين ، وإن سمعت عن بطولات شامخات ؛ فتذكر صغار فلسطين ، وإذا دار الحديث عن معجزات

^{١١} انظر في هذا الشأن : صحيفة هآرتس الصهيونية الصادرة بتاريخ ١١/٦/٢٠٠٣م ، مقالة لمراسل الجريدة للشئون العربية تسفي بارثيل .

خالدات ؛ فارفع هتافك ناطقاً : إنهم رجال المسرى وأبطال الأقصى ، ورافضو المنفى ، وعمالقة العز والدين .

فلسطين قد دفع مهر الانتماء إليها على امتداد التاريخ عشرات الألوف ، لكنها لا ولن تتساهم ، فهم بنوها البررة ، وفرسانها الحماة ، إنهم الشهداء وكفى باللفظ تدليلاً على مكارمهم.

إنه ثمن عظيم ، وتضحية باهظة قدمتها فلسطين على شرفات كل يوم يبرغ فيه النهار ، كانت تنظر إليهم ؛ وتودعهم نحو السماء يعرجون بأرواحهم بلا براق ، يا هذه الأرواح الطاهرة ، أيتها المآثر التي تقمصت ثوب البشر ، أنى لنا أن ننسى - تحت أي ذريعة أو مبرر - جهد وعطاء وكفاح خير بني البشر ؟

أراني بمجرد ذكرهم أغرز مخرزي في عين جلادي، واسأل كل شاعر ومتقف وأديب .. فإنك ستراه قد سطرّ الملاحم والملاحم ، إكباراً لرموز التضحية ، وافتح دواوين الشعر والنثر ستجد شعراء الماضي تتحجر أقلامهم عن مجارة الوصف المذهل ، فكل شاعر في العصر الحديث ، شكّل لوحده مرجعاً للذاكرة الفلسطينية ، ذاكرة الشهادة والشهداء والاستشهاديين ، فالشعب يقدر رجالاته ، وأهل الفضل يعترفون بالفضل لصانعه ، وبالمعروف لباذله ، فكيف بنا إن كان الحديث عن آلاف الشهداء الذين ضمّخوا هذا التراب بدمهم الزكي الطاهر!؟

لكن ، ما هي مجالات الاهتمام بالشهداء في الشعر الفلسطيني ؟

إن نظرة متفحصة تضعك أمام تاريخ رواه الشاعر الفلسطيني لكل معركة ، وصورة حية ناطقة متحركة لكل مجزرة ، وقد تعددت ألوان الخطاب ، واختلفت زوايا المنظر والوصف ، ولكن مجموع الشعراء بما أبدعوه وصاغوه ، قد وضعوا حول اسم كل شهيد هالة من الاحترام والإجلال ، وقد تناولت جوانب وصفهم الشعري جوانب متعددة ، منها:-

١- المجازر الصهيونية المتعاقبة ، من زمن الاحتلال البريطاني وحتى يومنا هذا ، كل يصف ويؤرخ ، ويعالج ويبدع بريشته للتاريخ تراثاً وعطاءً .

٢- حالة الاستشهاد . فتجد الشعراء قد وصفوا موضع الإصابة القتالية ، وبسمة الشهيد ، وحالة جسده ، وتمزيق الرصاص للأحشاء ، ومواضع الشظايا .. وغير ذلك من أمور.

٣- الأعمال البطولية.. فترى الشعراء قد أبرزوا المعارك الخالدة التي خاضها هذا الشهيد أو هؤلاء الشهداء ، وما تركته من أثر على الشعب الفلسطيني ، أو أثر داخل الكيان الغاصب .

٤- استقبال الشهداء .. فهذا يصف مشاعر الآباء والأمهات ، وهذا يذكر زغاريد النسوة ، وهذا يتحدث بلسان الشهيد المحمول على الأكتاف ، وهذا يربط الحدث بالماضي لإعطاء صورة العظمة للشهيد واستقباله.

٥- مواراته الثرى ، ومواكب التشييع ، ودموع الوداع ، والأيدي الملوحة ، والقسم بالثأر ، وتعبيرات الوجوه ، كل هذه الصور تقاطرت بها قصائد الشعراء من هول احتوائها ، ومن شدة ما قدم هذا الشعب وهو يسوق أطفاله قبل شبابه ، ونسائه قبل رجاله ، وشيوخه قبل فرسانه إلى ساحات الردى ، ليرفعوا لواء جعفر الذي ما سقط يوماً ولن يسقط ، فالشهداء أقسموا ، والرجال تعاهدوا ، والإسلام قد تحرك في العروق ، والعدو ليس له قلب (١٢).

إن موجة الشهداء التي تصدم آمال العدوان على الأرض البتول قد شكلت حالة من اللهب المتوهج ، تطغى فوق متاهات السياسة الممجوجة ، والإفك المصطنع عبر التضليل الإعلامي ، وأحابيل الوعود الكاذبة ، فالسيف أصدق إنباء من الكتب ، والدم في الميدان هو لغة التفاهم ، وقذيفة من الحديد لا تعدلها ألف قذيفة من الكلام ، والتاريخ شاهد (١٣).

أمام هذا العطاء منقطع النظير ، والتقدم نحو مصاريع الجنة بلا اكرات بالعقبات ، وأمام جيل الصحابة الذي يبعث من جديد في مظهره

١٢ انظر رد أريه ستاف على يجيعام فايس المنشور بقلم أريه ستاف في النشرة الشهرية التي يصدرها : المصدر ، بإدارة عطا القيمري - القدس في العدد ٤٠ من سنة ٢٠٠٣ مشروع ترجمة الصحف العبرية - القدس .

١٣ رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، محمد قطب ، مكتبة السنة القاهرة ، طبعة عام ١٩٩٩ م ، ص ٦٥ - ٨٠ حديث عن مخططات اليهود واستراتيجياتهم التوسعية .

ومضمونه وفحوى تكوينه الذاتي ، كانت لشعراء فلسطين صولة وجولة ،
وروايات لا تنقطع.

والشاعر الفلسطيني لا يحاكي الحوليات التي كان يعمد إليها السابقون،
فليس أمام الشاعر الفلسطيني إلا أن يبدع مثلها في أقل من يوم ، ففي الغد حولية
أخرى ستكتب ، وبعد الغد كذلك .

فلا مجال أمام الشاعر الفلسطيني إلا أن يكتب بسرعة ، وهذا لا يعني
الضعف ، وإنما حاز من مسك الدم الفلسطيني المنبعث من كوكبة الشهداء روح
الإتقان ، وقوة المنطق ، وحكمة الشعر ، وسرعة التأليف .

ثانياً : الأسرى .. بوابات الأمل

ليس غريباً أن تزي اليهود - وقد عاثوا في الأرض فساداً وإفساداً -
يتطاولون على حق الإنسان بالعيش حراً مكرماً بالإنسانية ، فتراهم يعصفون
بكل ما أرسى الديانات السماوية قواعده ، ويضربون عرض الحائط مستهترين
بها وبما حملت ، متجاهلين لكل المواثيق والأعراف الدولية التي حرصت على
هذا الحق ، وقننت له القانون تلو القانون (١٤).

^{١٤} .اقرأ في ذلك : هلم نخرج من ظلمات النيه ، ص ١٤ وما تحدث به الأستاذ محمد قطب
عن ظلمات الاستعمار وخطورتها ، ومحاولاتها لفرض القهر والإذلال على الشعوب
المستعمرة .

ولا غرو أن يكون الأسير الفلسطيني هو الصورة الحية التي تعكس حجم الألم والمعاناة التي افترتست هذا الشعب ، فتراه يقع في أسر الصهاينة لهذا السبب أو ذاك - ولن تعدم الدولة العبرية حجة - ليقدم لمحكمة صهيو-نازية تحكم وبجرة قلم أن يتقلب هذا الفلسطيني- لأنه فلسطيني - في غياهب الزنازين والمعتقلات ، ليمر عليه العام بعد العام ينتقل من عذاب إلى عذاب .

وإن كنا نقر أن الفلسطيني هو راس الحرية في الصراع، فإننا نعترف للطليعة الرائدة منه- والتي تعد بآلاف الآلاف- بالشرف في مقارعة خطوب الثورات المتعاقبة ، ليقصموا شوكة العدوان الذي طوع الشرق والغرب لخدمة أطماعه ، وليكون الأسير الفلسطيني بملاحمه البطولية على مدار تاريخ الصراع ، هو البوصلة الحقيقية التي تشير إلى معدن الانتماء الصادق للقدس والأرض والهوية.

إن فلسطين - لطبيعتها الجغرافية والدينية - قد ألهمت العمل المقاوم منذ أن مدّ الصراع أشرعه ، فكانت ترفد العمل الكفاحي ، وتصوغ من رجالها وشبابها ومفكريها وقوداً لكل مرحلة ، وبالتالي ؛ كان لها حظ من الهجمة العدوانية التي استهدفت ألوية الجهاد والمقاومة الفلسطينية ، حتى بات كمّ ضخم من علمائها وأهل الكفاءات العلمية التخصصية فيها ، وكوادر العطاء والفعل النضالي من مختلف شبابها يرزحون تحت وطأة الأغلال ، ليخوضوا مرحلة جديدة من الكفاح داخل بطن الحوت الصهيوني .

وتشهد أحداث السجون وأقبية التحقيق لأبناء فلسطين الشم الأماجد ،
 في صولاتهم وجولاتهم ، وما يسطرونه تارة بالمظاهرات الداخلية التي كانت
 كالشوكة في حلق الصهاينة ، وتارة بمعركة الأمعاء الخاوية ، التي أثبتت أمام
 سمع وبصر العالم أجمع أن الإرادة الفلسطينية كالطود الثابت لا يعبأ بالرياح ولا
 بالعواصف .

ثوار برغم السلاسل

من خضم هذه البطولات التاريخية ، والتي ينبغي أن تسجل بمداد من
 الذهب ، فقد أفرز الجرح الأسير ثورة أخرى ، واستحالت المحنة إلى منحة ،
 وبات رواد الجهاد الباسل بعد أن جردوا من أدوات النضال يخوضون ملحمة
 الأدب ، ويساهمون في أسطورة التحدي اللاهب .

فمن داخل المعتقلات ، برعت منذ فجر التلاحم بين الحق الفلسطيني
 والطغيان الدموي الصهيوني مجموعات الأدباء ، وقوافل الشعراء ، ومواكب
 المتحدين للإنكسار أمام أمواج الغطرسة ، فتعملقوا بما جادت به أذهانهم ،
 وصاروا يدونون صنوف العذاب والألم أبياتاً من الشعر الدافيء ينساب قصيدة
 قصيدة ، ويتألق مع كل صدر وعجز .

لم تقف الأمور عند الأسرى الأدباء فحسب ، وإنما كان فرسان اليراع يسطرون من خارج الأسر صولات وجولات الصراع المرير ما بين إخوانهم وأعدائهم ، ليتعانق الوصفان ، وتتوحد أركان الصورة ، ليقدم الداخل والخارج إلياذة جديدة تحكي في كل حرف فيها معاني العظمة والشموخ والتحدي.

ويظل ملف الأسرى الصرخة الحية في وجدان الشعب الذي يكافح ويدافع ، ويرسم سياسات المعادلة المتجددة كلما خبا أوارها ، فقد شكل الألم الذي لا يتوارى خلف غيوم النيسان رمزاً للتغني ، ومنازة يقصدها كل مفكر وشاعر وأديب ، الأمر الذي تلمسه في مطالع القصائد وثناياها، ويصهر الشعراء حروف البلاغة ليصوغوها نشيداً خالداً يتحدث عن معمعان التصادم ، وانتصار الفكرة على لهيب الحديد والسلاح .

بالتالي ؛ فإن أقلام أبناء فلسطين لم تنسى فضل أهل الفضل ، وانتصر أهل الموهبة لقضيتهم مع كل قصيدة تدون ، وكل ديوان يرى ضوء الشمس ، فتدافعت عجلات المطابع ، وتسابق الأدباء والشعراء في طباعة أدبيات السجون .

ودون أدنى شك ، فالواقع الاعتقالي الذي مر به عدد غير قليل من أبناء هذه البقعة الجغرافية الباسلة ، قد أوجد حالة من الألم تستقر في وجدان كل ذي لب ، حتى لا يكاد يخلو بيت من أم تبكي، أو أخت تهيم بالذكرى ، أو زوجة تتقلب في عالم الآهات ، أو والد حفيت قدماء من الانتظار على أبواب

المؤسسات الدولية التي إن أفلحت في أمر يخدم الأسرى فشلت في آلاف ، وهي لا تعدو أن تكون عنواناً لمن يريد أن يشكو دون أن تدفع دولاب الأسرى وقضيتهم خطوة واحدة إلى الأمام .

شكل هذا الواقع مادة دسمة أمام رفقاء اليراع وأصحاب الصحائف ، ووجه رسالة مفتوحة أمام كل موهوب ليجوب في فضاء الوصف ، وآفاق التصوير والتمثيل والتدوين .

أهم المحطات المراعاة

ركز الشعراء في دواوينهم وقصائدهم على المعطيات الاعتقالية بشمولها..

١- فتراهم يخوضون في ذكر لحظات الوداع وفرقة الأهل والأحبة ، ويعبرون بحروفهم النقية عن نظرات الوداع ومرارة الخطف الدنيء ، وأسى البعد عن البيئة والخلان ، فكانت قوافي النظم تمثل صورة حية لانتزاع النبتة من الأرض التي نمت فيها ..

٢- تراهم يصفون قسوة الجلاذ ، وحقد السجان ، ومعاناة الاعتقال في أوج العنجهية من طواغيت الأرض . وكم قد أرشفوا للمعاناة والألم والجراح المتركمة في ذاكرة شعبنا المجاهد.

٣- في فصول أخرى ، تجد الشعراء يتحدثون عن قسوة الظروف المعيشية التي يفرضها أعداء الإنسانية على الأسرى ، من حالات صحية مزمنة لا تلقى العلاج ، ولم تتلق أدنى رعاية ، وطعام وشراب لا يكاد يصلح للدواب ، وشروط وأوامر تنفذ تحت رعب السلاح وأمر البارود القذر ، وفي هذا المجال حدث عن نسل القردة والخنازير ولا حرج.

٤- جسّد الشعراء أحاسيس الأسرى ومشاعرهم تجاه أهلهم ، فمنهم من حكم عليه الباطل بأن يصادق أسلاك السجن وقيود الأسر عشرات السنوات ، فمن واصل لوضع المعتقل ، المعبر عن شوقه للأهل والأبناء ، إلى راسم بحروفه النورانية دمعة الزوج لفراق زوجه ، وعبرات الأب وهو يحن لأبنائه ، في مشاهد من التأجج الروحاني والنفسي ، حري بالتاريخ أن يلتفت إليها عند كل موعد للإصباح.

٥- منهم من تحدث بإسهاب حيناً ، وباقتضاب حيناً آخر عن مراحل التعذيب والإيذاء الجسدي والنفسي ، وفترات الإبتلاء الحرجة التي حفرها كل أسير في وجدانه ، إذ كيف ينسى أي من مر بهذه المحطات المعتمدة قلة النوم ، ونار العصي ، وعذاب الوحدة ، وحقد السجان، وتعسف البرابرة الجدد في محاولاتهم لانتزاع الاعتراف بأي ثمن .

٦- تفنن العديد من الشعراء في إبراز لحظات الميلاد الجديد للأسير ، يوم أن يودع قلاع الأسر والأبواب المحصنة، والجنود المتعجرفين ، والأوامر

التي تحاول كسر الإرادة وتحطيم الذات ، فتراه يصف لحظة خروج الأسير ،
ولحظة لقاء أهله وأطفاله ، ودموع الفرح ، وتنهيدات السرور والحبور .

وبكل جدارة ؛ كان الأسير هو رسول أي ثورة ، وعنوان الكرامة ،
وشكلت مراحل الأسر محوراً حساساً في تاريخ الصراع مع المغتصب ، وهذه
القضية باعتبارها ملفاً ساخناً على الدوام ، وجرحاً ينزف ما بين كل فينة
وأخرى^(١٥). تشكل تراثاً لا بد من اغتنامه باستنارة في كل جهد أدبي.

ومن البدهي أن تشكل هذه الأشعار - متناثرة أو متناكحة - مادة لدى
الأسرى ، فهي محفوظة عن ظهر قلب ، يتغنى بها السجناء لشدة العزيمة ،
ولرفع المعنويات ، وبذر الصمود والأرادة في النفس ، فتسمعها تلقى بثوبها
الشعري القشيب حيناً ، أو موالاً حيناً آخر ، وأنشودة في كل مناسبة تتوافق
أبياتها معها.

ولا بد من ذكر حقيقة هامة هنا ، وهي أن الاحتلال ، وعلى امتداد
تاريخه الإجرامي ، عمد إلى حملات الاعتقال المباشرة للأدباء والشعراء
وأصحاب الدرجات العلمية العليا ، بوصفهم خلف كل ثورة ، ولعلم الاحتلال أنه
لا يقوم كفاح مؤثر بدونهم ، وبالتالي ؛ فقد غصت السجون بأصحاب العقول

^{١٥} اقتحام الوعي العالمي في إنتفاضة أسرى فلسطين في سجون الاحتلال ، عيسى قراقع
وجميل المطور ، ط عام ١٩٩٩ ، مركز الشرق للدراسات - رام الله ، ص ٥٨ - ٦١ .

المفكرة ، والأأيادي البيضاء النقية ، ورواد الأدب والثقافة والشعر^(١٦) . مما جعل الكلمة تكتب من قلب الواقع ، فتخرج الصورة بيضاء صافية لا تشوبها شائبات التوقع أو التخمين.

للحقيقة . . فإن المعاناة كلما اشتدت - وهذه سمة الواقع الفلسطيني على الدوام - فإنها تخلق روح الإبداع ، وتفرض على العقول أن تبتكر من الوسائل والأساليب ما يكفيها عناء الهجر والنسيان ، وهذا ما أكد عليه أكثر من أديب وشاعر ، لأن احتدام المعركة يفرض علينا أن نستبسل في فرض ذاتنا بكل السبل المتاحة ، وبكل إمكانية متوفرة .

وللكلمات دلالاتها في توضيح الاستاذ محمد قطب بحيث يقول : ((لقد كان الإستعمار هو التكذيب الفعلي لكل دعاوى الغرب في رفع قيمة وإنسانية حضارته وإيمانه الحقيقي بما يرفعه من شعارات ، وكان دافعه الأسود كفيلاً أن يوقظ المسلمين من وهلة بناها وهم إلى حقيقة تلك الحضارة الزائفة، الموغلة في الأنانية ، المسفة في وجدانها الإنساني إلى الحضيض ، كي يعود المسلمون إلى أمجاد تاريخهم المهجورة ، ليقارنوا بين حركة الفتح الإسلامي ، والإستعمار الصليبي^(١٧) .

^{١٦} اقرأ في ذلك : أزمة العقل السليم ، د. عبد الحميد أحمد أبو سليمان ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، الطبعة الأولى ١٩٩١م ، ص ٥٠-٥٣ .

^{١٧} هلم نخرج من ظلمات التيه ، محمد قطب ، دار الشروق - القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٩٤ ، ص ٦٤ . بتصريف يسير يقنضيه السياق .

ثالثاً : الإصابات والإعاقات

من بين أزيز الرصاص ، ودوي المدافع ، وتحت وطأة الموت القادم من الجو والبحر والبر ، كان شعبنا الفلسطيني على موعد مع الألم ، وسجل في أضراباته التاريخية ألف ممن أفقدهم الصراع العقدي عيونهم أو إحداهما ، وألف مصاب في أحشائه ، وألف مصاب في رأسه ، وألف مبتور للأطراف ، لتتجمع كل هذه الآلاف التي رمزنا لها في الإحصائيات الدورية التي تصدر عن وزارات الصحة في كل مدينة ومحافظة .

لقد غصت المستشفيات ، ودور الأطباء ، والمراكز الطبية ، بالآلاف ممن كان لهم شرف الانتماء إلى هذه الثورات المباركة ، فمنهم من بتر الألم ساقيه ، ومنهم من شلته رصاصات الغدر ، ومنهم المقعد والضرير والكفيف والمبتور ، وكل هذه الحالات صارت معروفة لدى الشارع الفلسطيني ، فما من بيت أو عائلة أو حيّ إلا ويذكر لك حين السؤال روايات عن الجرحى والمصابين^(١٨).

^{١٨} .انظر : مجلة بلسم ، جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني ، العدد ٣٠٥ السنة السادسة والعشرون ، طبعة عام ٢٠٠٠ م ، موضوع الاحتلال يعمل على خلق جيل فلسطيني مشوه ، ص ٢ .

هذا أصيب في مكان كذا في عموده الفقري فشل ، وهذا اخترق الرصاص قدميه فبترت ، وهذه أرعدت الشظايا في وجهه ففقأت عينيه ، وهذا وهذا ..

وسط بحر من الجرحى ، في المدن والبادي والأرياف والمخيمات، باتت هذه المعاناة مصدر إلهام لكل شاعر حر صافي الانتماء ، فراح يؤرخ الحدث ويصف المعاناة ، وينسج من الآهات أعذب القصائد ، ويتغنى بالصبر والروح المعنوية العالية ، ويخط بقلمه السيل حكايات لها في الأفق صليل وبريق.

الأمر ليس كما يظنه البعض ، مجرد أوهم تقذف جزافاً هنا وهناك ، أو تهويلاً للأمر من أجل استدرار مكسب أو موقف من شرق أو من غرب ، فمن سار ما بين الأزقة ، وتمشّى في الحواضر والمخيمات ، سيلمس الجرح في وجوه الأطفال الذين أقعد الرصاص آبائهم ، أو أفقدهم الدوي أسماعهم ، أو نفاهم الخوف إلى متاهات الرعب والحالات النفسية القاسية (١٩) (٢٠).

التقيت خلال وجودي في السجون الصهيونية عدداً ضخماً ممن أصابهم الرصاص ، واخترقت الشظايا أجسادهم ، وأنا هنا لا أتحدث عن حالة

١٩ للإحصائيات.. انظر: مجلة : بلسم ، ص ١٤- ١٨ .

٢٠ بلغ عدد الجرحى خلال سنة واحدة لانتفاضة الأقصى أكثر من ٣٠ ألف جريح ، انظر مجلة المنبر ، وزارة الأوقاف الفلسطينية، ص ١٠٥ .

أو حالتين ، ففي دفعة واحدة وبعد معركة مخيم جنين التي سطرها الرجال في إنتفاضة الأقصى المباركة ، ألقّت سيارات الاعتقال في المعتقلات من بطونها مئات المصابين ممن تتراوح إصابتهم بين الخدش وبين تغيير ملامح الوجه والجسد، فيما يعكس حالة الصراع الدموي بين المؤسسة العسكرية الصهيونية وجنرالات المقاومة الباسلة .

من بين الجراح

الشاعر بين هذه المعطيات لا يقعه إحباط ، ولا توثقه سلاسل ، وإنما تنتفض لهذه الآلام مشاعره ، وتتوقد من هول الدماء بصيرته ، وتجده يصل ليله بنهاره ؛ يخطف من بريق القمر وإشعاع الشمس مداداً لقلمه وهو يستبيح مجالات البلاغة والأدب ، ويمزج ذلك كله في ملحمة أسطورية ، ومعلقة جديدة، لو كان العالم حراً ويقدرها لعلقها على جبين الشمس ، ولوضع نسخها على ظهر الكواكب .

فأي قلب هذا الذي لا تهزه رائحة الدماء ؟.

وأي ضمير هذا الذي لا تحركه أنات العظماء ؟

وأى وجدان هذا الذي لا يثور وهو يرى رجلاً بلا يدين؟ أو طفلاً بلا
عينين؟ أو شيخاً بترت يده؟ أو عالماً انفطرت أصابعه؟ أو شاباً يرقد لأشهر
في سرير الموت؟

لله درّه من شعب .. كم قاسى وكم عانى .. كم أثقلته الجراح .. وكم
اجتاحته جنازير المصفحات والدبابات ، ولكنه يصرخ من رحم الفجيعة ، لن
أساوم ، لن أساوم ، أنا هنا لأقاوم.

براءة

الشاعر الذي يأوي إلى طيب شذي محبوبية يمدحها والموت موزع
بين الناس ، أو يعصر دماغه من أجل قصيدة يمدح بها صاحب السمو أو
الجلالة أو الفخامة، والأطفال في فلسطين تبحث عن آبائها وأمهاها ، إن مثل
هذا الشويعر يكون بطن الأرض خير له من ظهرها ، وهو زيادة على الحياة لم
يزد فيها شيئاً ، وستلعه الأجيال ، وترجمه، حتى إذا مات بصقت الأطفال على
قبره.

في ساحة المعركة ، لا مجال للنفاق ، وإذا لمع الرصاص خبا نشيد
العشاق ، وإذا استبيحت الأرض فلا ينطق ولا يدافع وينافح إلا العملاق ، ومن
تخلّى عن أهل المكارم حين اشتداد البأس عليهم فليس له عندنا إلا اللعنة .

رابعاً : شعب.. ثلثاه في المهجر

ذكريات تلهب الوجدان ، حين حمل كل فلسطيني يقطن في المنفى اليوم - هو وأولاده- متاعه أو ما تيسر منه ، وأمتطى حصان الرعب، وتوجه على غير هدى ، لايدري إلى أي وجهه تسير به قدماه ، لايستوعب من الحكمة والمنطق والفلسفة سوى أمر واحد ، كيف يفلت من البندقية المحشوة المصوبة عليه إن غير مسار وجهه (١).

لا شك أنها أيام عصيبة، حين انتحبت الأرض لوداع رجالها وفرسانها ، حيث كانت فلسطين تتعرض لأشرس الحملات النازية والفاشية في التاريخ ، تتأرجح ما بين موت وموت ، وتهرب من مجزرة إلى مجزرة ، وتصخّ أذنانها دبابات العدوان وهي تستحق الزنايق البرية في مروجها ووهادها.

أي جرح هذا .. أن يجد الإنسان نفسه أمام خيار واحد ، إما أن يفعله وإما الموت .. إنه قرار صعب ، ومسؤولية عظيمة تنوء بها الجبال أن تميد (٢).

١ بين الرشاد والنتيه / ص ١٠٨ .

٢ اقرأ في : مجلة فلسطين ، تصدر في مخيم الدهيشة ، العدد السابع ، السنة السادسة ٢٠٠٠ ، ص ٨- ١١ .

فبعد دمار خلفه الاحتلال الإنجليزي ، وأجساد علقت على أعواد المشانق ، وحملات الإرهاب المنظم التي قادتها القوات النظامية الإنجليزية بتوجيه رسمي من قيادتها ، صار الشعب الفلسطيني ما بين مطرقة الإنتداب وسندان عصابات الهاجاناه وشتيرن والبالماخ والأرغون الصهيونية ، وهو تاريخ عصيب وحرب مفتوحة الأبواب والساحات .

وإليك فقط نصاً داعماً لما أ طرح ، أعرضه عليك من مذكرة رسمية بريطانية موقعة تحت رقم ٢ - ٣٩ ، بتاريخ ١٧ مايو آيار ١٩٣٩م ، تطرح الخطة السياسية لبريطانيا تجاه ملء الأرض الفلسطينية بالمستجلبين الصهاينة لتفريغ أهلها الشرعيين ، تقول الوثيقة :-

إن حكومة جلالته مقتنعة أنه متي تمت الهجرة التي يفكر فيها الآن على مدار السنوات الخمس المشار إليها ، لن يكون لها مبرر ، كما أنها لن تكون تحت طائلة أي التزام ، لتسهل إنشاء الوطني القومي اليهودي عن طريق السماح بهجرة أخرى بقطع النظر عن رغبات السكان العرب .

لقد تكالب المجتمع الغربي لغرس هذا الكيان المصطنع في أرض لا يمكنها ، وليس له أي حق فيها ، وبالتالي ؛ فرضوا من السياسات ما من شأنها فتح المجال أمام الهجرة الفلسطينية ، أو التهجير القسري ، وقد كان الخيار الأول فاشلاً حين تمسك الفلسطيني بترابه ، فالتجأت العصابات الصهيونية والإدارة البريطانية (الإنتداب) إلى العمل بالتهجير القسري ، حيث قامت

بارتكاب العديد من المجازر ، كلها تستهدف التجمعات السكنية الفلسطينية ، فتعيث فيها خراباً ، وتظهر وحشية منقطعة النظير في القتل والرعب والتدمير ، حتى لم يسلم منها حجر أو بشر أو شجر .

هذا العدوان السافر جعلهم في قلب التجمعات الفلسطينية ، واضطر الأهالي إلى مغادرة أرضهم تحت تهديد السلاح الذي لا رحمة فيه ، ولا رحمة في قلب من يحمله .

فبدأت حركة هجرة سميت بالنزوح ، فالبعض اختار لبنان ، والبعض يمم شطر الأردن ، وآخرون لاذوا إلى سوريا ، وغيرهم إلى العراق ، وغيرها..

والآن .. تجد الآلاف المؤلفة من النازحين واللاجئين^{(١)(٢)} . في مخيمات الشتات ، تكاثروا والأسى يملا عيونهم ، غصت بهم شوارع بلدان - وإن تربوا بها - لا ينتمون إليها ، فهم فلسطينيون بدمهم وروحهم وحضارتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وهذه الأرض الفلسطينية من حقهم ، وهذا الحق لم ولن

^١ اللاجئ : هو الذي غادر وطنه من عام ١٩٤٨ فصاعداً ، أما النازحون : فهم من غادروها في عام ٦٧ فصاعداً .

^٢ انظر : مجلة بلسم جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني ، العدد ٢٧٥ السنة الرابعة والعشرون ، ص ٣ - ٤ - المقدمة .

ينسوه أو يتناسوه حتى لو عصفت بهم موائيق عصابة الأمم أو هيئة الأمم أو المجتمع الدولي الغادر.

ولا نقصد هنا قومية مقبلة ، ولا وطنية مجزوءة مهترئة ، ولا نتغنى بقانون وضعي أو فكرة باطلة نهانا الشرع عنها ، ولكننا نضع الأمور في موازينها ، والحق أحق أن يتبع ، وهذه الأرض حقهم الذي لا ينازع فيه عاقل ، اللهم إلا عقلانية الغرب العوجاء (١).

والأديب الفلسطيني صار بعد التشريد القسري على حالين .

الأول : مقيم في الأرض الفلسطينية ، اختار هو أو آباؤه من قبله البقاء ، مؤثرين الحق المر الذي خاتمه الموت أو التجويع على مغادرة أرضهم التي عشقتهم وعشقوها (٢)·(٣).

والثاني : من خرج أو خرج أبوه وأجداده من أرض فلسطين ، فألقته سفينة الغربة في أحد مخيمات اللاجئين أو النازحين ، يتنفس هواء لا يجيد استنشاقه ، ويعيش في غربة أليمة المذاق والمعاش .

١ .انظر: معالم المنهج الإسلامي ، د. محمد عمارة ،المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، دار

الشروق ، ط ٢ ١٩٩١م ، ص ١٧ ، وفيها تأصيل للفهم الإسلامي لهذا الموضوع .

٢ الأهرام العربي ، العدد ٣٢٥ ، ١٤/٦/٢٠٠٣ ، ص ٣٠ - ٣١ ، موضوع: رفض التوطين للفلسطينيين في لبنان : الهام المليجي .

٣ مجلة المنبر ، العدد ٤٩٨ ، شهر ٥ / ٢٠٠٠م ، ص ١٠٦ ، بقلم د. سلمان أبو ستة.

وعلى كلا الحالتين ، لن يسلب التشريد من اللاجئ قلمه ، ولن يسرق من النازح فكره ، فالأبداع فينا - نحن الفلسطينيين - يجري مجرى الدم ، لايفارقنا إلا حين نقذف أرواحنا من الحلقوم .

المشردون الفلسطينيون الذين رمتهم أقدارهم آلاف أو مئات الأميال خلف الحدود المصطنعة لفلسطين الطاهرة ، عايشوا الحدث أولاً بأول ، وشاركوا الجسم الفلسطيني الممتد آلامه وآماله ، وقاسموه أفراحه وأتراحه ، وهم يتلقفون آهات شعبهم المحاصر في الداخل فيحيلونها تجارب ، ويكتبون أسماء الشهداء القادة على ناصيات الشوارع قبل مطالع القصائد.

محطات مضيئة :

الشعر لايتترك مثل هذا الألم دون رعاية ، فتجردت أقلام الدعاة ، وتمردت قرائح المبدعين ، وتوزعت مطالع القصائد وثناياها على محاور عدة ، من أهمها :

١- الوقوف على حدود الأرض المسلوبة ، وذكر الأشواق والذكريات الغامرة التي تفيض من نفس الشاعر الذي تبعده عن أرضه هذه الأمطار القليلة ، وهذه الأسلاك الشائكة ، فراح يلقي شعر الحنين والشوق بعاطفته الجياشة.

٢- الحديث عن الصكوك " وأوراق الطابو " ومفاتيح الدور التي يمتلكها النازحون واللاجئون ، وهم يحتفظون بها حفاظ المرء على بنيه ، فهي تمثل لهم

حق العودة ، وهي الخنجر الذي يطعن أوهام التوطين والتعويض الذي صار شعاراً ، يرفعه إيهود لنفيهم الأبدي عن الوطن .

٣- ذكر آلام المهجر ، وصعوبات المشردين فيه ، من وصف حال المخيمات ، إلى مقارنة ما بين المخيم والوطن الأم ، إلى حالات الوحدة وفقدان الخلان .

٤- استذكار أيام التهجير الأولى ، ووصف النازحين واللاجئين وهم يحملون أمتعتهم ، وعيونهم الباكية تحكي ألف قصة للانتماء ، وتعبيرات ترسم نقوش المعاناة وقسوة الظروف التي ألجأتهم إلى بتر وجودهم على ثرى أوطانهم .

٥- التأكيد على عودتهم ، وبذل أعالي الهمم ومعالي الآمال ، ووصفٌ وخيال شاعري يعبر عن رجوعهم إلى أرضهم رغم أنوف الطواغيت المتكبرة، مع ما في ذلك من جراح الأسف والندم على هجران الأرض ولو كان ثمن ذلك الموت .

الشاعر الفلسطيني الباقي على أرضه شاركهم هذا كله ، ورفض التفرقة الضيزى بين فلسطيني الداخل وفلسطيني المهجر ، ودلت القصائد المسطرة على تلاحم تام ما بين الأشواق والآمال ، ووصف التحديات المحدقة بالشعب بأسره ، ودلّ على ذلك التفاعل المزوج بين الشعراء والأدباء في أي قضية تطرأ على الساحة الفلسطينية بإيجابياتها وسلبياتها ، فهم في الهم شرق .

سطور تكتب ، وافكار تمتزج ، ومعاناة مشتركة ، وجراح نازفة ،
وآهات حارقة ، ودموع منهمة ، وأطفال محرمون .

كل هذه المعاني رغم قسوتها ، أعطت الأدب الفلسطيني ذخيرة فكرية
متميزة، وأرضية أدبية واقعية ، جعلت بناء اللفظ ودلالة المعنى ووصف الحال
يصوغ الأدبيات الشعرية بثالوث الوضع الفلسطيني : ((المعاناة ، والأمل ،
والأدب الحر)) .

الحركة الفلسطينية شهدت لعدد من الشعراء المهجرين بالإبداع ،
وأعطتهم مكانتهم الاعتبارية في الوجدان الفلسطيني ، واعترفت لهم بالمساهمة
الجادة في صياغة أدب المرحلة ، وشعر الواقع وقافيات التحدي .

من الجدير بالذكر ، أن الفلسطينيين القاطنين خارج أرضهم على
اختلاف مشاربهم الدينية أو الطائفية أو الفكرية قد رقدوا الأدب الفلسطيني ، كل
بحسب ذوقه ، وكل بحسب أسلوبه وطريقته في ابتداع القصائد ، فتسابق
المسيحي والمسلم في إيجاد الأدب الفلسطيني في المهجر ، في تحد صارخ
للتفرقة العنصرية المضروبة على هذا الشعب الواحد .

والأدب أدب ، من أي شخص صدر يُقيم ويوزن ثم يعطى حقه في
ميزان الأدب العربي ، بغض النظر عن قائله أو باذله ، فالعبرة في الأدب

بجودة الصنعة ، وإتقان المعاني ، وتنسيق الوجود للمطروح ، وروعة الاستشهاد والتصوير والبيان ، لا بمظهر قائله أو انتمائه الخاص .

تميز وتمايز

لكن للإسلام هيبته التي تفتو على أفق العطاء ، وله مكانته العالية ، وأسلوبه الخاص في صناعة رجاله ، فهو قبل أن يصنع الشاعر يصنع المفكر ، وقبل أن يفتح عيون فرسانه على أبحر الشعر أو طرق نظم القوافي؛ يعلمهم القيم والثوابت والمبادئ ، حتى إذا نزلوا بساحة العطاء كانوا من حكماء الأدباء ، لا ممن يكتبون ليقال كتبوا (١).

وبالفعل ؛ كان لشعراء الصحوة الإسلامية تعبيراتهم الراقية ، وجرسهم الموسيقي المستساغ ، وفكرهم المطروح على موائد الشعر - حره وعموديه - فأبرزوا الصراع على حقيقة العقائدية ، وصاغوا روي قصائدهم بعد بصيرة نافذة ، ودراية بعلوم التاريخ والحاضر ، ونزعوا ورقة التوت عن عورات الأنظمة المتخاذلة ، فمزجوا من الحنين سياسة ، وزاوجوا بين البلاغة والفهم الشمولي للصراع ، ودمجوا بين بهاء التصوير وسمو الرأي ، وكانت الثوابت لا تفارق صدر بيت أو عجز ، وشتان شتان بين من يكتب لفكرة يؤمن

١ اقرأ في : الأهرام العربي ، العدد ٣٢٥ ، ١٤ - ٦ - ٢٠٠٣م ، الخطاب الديني في أزمنته المستمرة ، نبيل عبد الفتاح ، ص ٧٩.

بها حتى تغلغت في شغاف قلبه ، وبين من يكتب ليزاحم الشعراء في دواوينهم ، مع اعترافنا بفضل من ساهم ، على اختلاف أطياف الشعب الفلسطيني الباسل .

خامساً : الطفولة المحرومة المعذبة:

ما بين هواجس القصف والدمار ، ومع المشاهد المتكررة للقتل ورشوح الدم ، والمناظر الأليمة ، ومع أطياف تلاحقهم بالنهار وأشباح تطاردهم في الليل ، ووضع إقتصادي متردٍ .. عاش أطفال فلسطين في جزيرة معزولة عن العالم ، بعيداً جداً عن سمع وبصر ما يسمى بضمير الإنسانية^(٢).

لقد فرضت شراة العدو في تدمير كل قيمة جمالية أن يحصر أطفال فلسطين في نفق الرعب ، وإقتضت الدوافع التجهيلية التي تنتهجها دول العدوان البربري أن تقوم خطواتها في ضرب الصمود الفلسطيني بتجفيف منابع القوة الوطنية ، ومحاضن التربية للأجيال ، فعمدت بسياسة مبرمجة إلى قرارات إغلاق المدارس ، وحصارها ، إشاعة للرعب اليومي أو شبه اليومي فيها ، إن لم يتم إغلاقها بالكامل .

^٢ اقرأ : مجلة الأهرام العربي ، العدد ٢٥٦ ، ١٦ / ٢ / ٢٠٠٣ م ، السنة الخامسة ، حكاية زوجة الشهيد ، ص ٧٣ ، وهذا غيض من فيض .

كل هذا جعل الطفولة الفلسطينية أكبر شرائح المجتمع تضرراً ، وإذا أضفنا عنصر الحصار والتجويع ، وهيمنة الحواجز ورعب الإقتحامات والإجتياحات المتوالية ، فإن الصورة تزداد قتاماً وبؤساً .

شح موروث :

بنظرة تاريخية ، نجد أن التاريخ قد بخل علينا بمادة أدبية تُعنى بالطفل ، أو تسعى لتربيته والنهوض بآفاقه وطموحاته ، وقد ضُمنت المصادر الأدبية في العصور الأولى بتراث مقروء يصلح أن يعتمد عليه كأساس لبيئة تربوية تسهم بدورها في ازدهار الميول والحاجات الطفولية ، التي ضاعت في زحام التصادم الدائم في عصرنا .

لن نلبس على عيوننا نظارات سوداء ، أو نحكم على الدنيا من خلال منظار أسود ، ولكننا بتنا نبحت ونقلب علناً نقف على مجهودات اللاحقين في إستدراك ما غفل عنه السابقون .

صحة :

بعد بحث في المكتبات ودور النشر ، نلمس في هذه الأيام التفاتة صادقة إلى الطفولة في العالم أجمع ، فالعالم الغربي أدرك أن الطفولة التي غادرت طور الحبو حديثاً ستتسلم زمام الأمة في غدها ، فتعاقدوا مع الأدباء

والمؤسسات والمتقنين ، وراحوا يفتحون مجالات الإبداع الكتابي ، ويدعمون حمى التسابق، حتى تواطأ مثقفو الغرب على صياغة منهاج طفولي متنوع الاهتمامات والمجالات .

أما في العالم العربي - وفلسطين جزء منه - فقد أغفل هذا الجانب تحت الضغط المتراكم على هذا الشعب ، وتغاضى المثقفون عن حق الطفولة في أدب يبني شخصياتهم بأسلوب سلس مفهوم ، يوائم المرحلة العمرية لهم ، ويزرع فيهم بذار الخير والفضائل حتى يشبوا عليها.

افتتح الاهتمام بجانب الطفولة من عهد رفاة الطهطاوي ، حيث سافر إلى باريس وأطلع على ثقافتهم ورعايتهم للطفولة في شتى مراحلها ، فنقل الصورة إلى مصر ، ومن ثم ، كان إسهام أمير الشعراء أحمد شوقي بتميزه الأخاذ ، حتى عدة المؤلفون أول من ألف أدباً للأطفال باللغة العربية ، إضافة إلى نظم الأناشيد والأغاني الطفولية ، وإبداعه في الحديث على أسنة الطير والحيوان مما يستهوي الطفل في سنوات عمره الأولى ، ليفتح المجال بعده لمن له يد وباع في مجال التأليف ، فانتشرت المكتبات الموجهة إلى الأطفال إنتشار النار في الهشيم .

أما في المجتمع الفلسطيني ، فقد كانت خطوة الريادة للأدبيين محمود عباسي وجمال قعوار ، اللذان قدما العديد من الإبداعات للأطفال في فلسطين،

ثم تدافع بعدهم الأدباء لتمتليء مكتبة الطفل بالقصص العربية ، والقصائد الشعرية التي تربي وتهذب وتشذب المسلكيات والتصرفات .

على ضوء هذه الرؤية الناضجة ، اقتحم المثقف الفلسطيني ساحة العطاء، ليعمل على انتشار الطفل الفلسطيني من المستوى الذي وقع فيه ، فارتفع منسوب العمل ، وازداد ارتفاع سقف الإنجاز ، فصار الصغار في مجتمعنا يجدون مادة أدبية مشوقة ومحبية لديهم ، يقضون معها أوقاتهم ، وفي الوقت نفسه ؛ كان المجتمع أسهم بأداء جزء من حقهم بوجبات طيبة ترفع من مستواهم العام ، وترتقي بهم نحو مجالات النمو والنهضة .

والناشئة الذين لم يكثرث المجتمع لهم قديماً باتوا يطرقون أبواب الواجب ، وصاروا يطالبون بحقهم ، حتى استاثروا نخوة العلماء والفقهاء والأدباء على حد سواء ، فصارت الكتب - حتى الفقهية والدعوية منها تشتمل على مباحث وفصول للجانب الطفولي لفهمهم ضرورة مراعاته، وأذكر ما قد خطّه الشيخ محمد أحمد الراشد في المسار حين قال :

" فإن الناشئة هم المورد الرئيسي للنوعية الصلبة المتقانية من الدعاة ، إذ لا يبرأ كبير السن من نوع أو أنواع من السلبيات التي أكسبته إياها حياته الأولى قبل تعرفه على الدعاة ، وأما الناشئ فكله محاسن ، وكله حيوية ، تصبر عليه سنوات قليلة فإذا هو الرجل الكامل ، المقدم المثابر ، وما أظن أن بنا

حاجة إلى تكرار البدهيات التي تقنعك بالعمل معه ، وتذكرك أنهم أغصان طرية (((٣) .

صدقٌ كامل ، وفهم شامل ، وحنكة مجرب ، تتساب مع دفق اليراع المؤمن ، فقد حوى الراشد الصورة بفوائدها وتطلعاتها المستقبلية ، في كلام يعد على الأصابع .

وبالرغم من المقالات والنشرات والتحليلات الصحفية التي عمرت صفحات المجالات والصحف ، يومياً وأسبوعياً وفصلياً ، إلا أننا نجد ندرة في أرشفة الواقع الطفولي ، وخصوصاً بعد سلسلة الانتفاضات التي بدأت بالانتفاضة الكبرى عام ١٩٨٧م ، إلى إنتفاضة الأقصى الأولى (النفق) ، إلى إنتفاضة الأقصى الأخيرة ، وما ترتب عليها من آثار مدمرة على مختلف الشرائح المجتمعية ، وعلى وجه الخصوص القطاع الطفولي ، اللهم إلا بعض ما بُثَّ هنا وهناك .

نقطة نظام

أثار انتباهي أثناء البحث ؛ ذلك التوجه العازم عند النصارى الفلسطينيين بشكل خاص ، ورغباتهم التي ما عادوا يسترونها بخمار السرية ،

٣ المسار ، محمد أحمد الراشد ، دار المنطلق للنشر والتوزيع - دبي ، ط ٣ ١٩٩١م ، ص ١٤٥ .

فها هم يحللون ويوجهون ، وبانت اهتماماتهم ومصادر توجيههم بحملة تعبئة تتوجه نحو الطفولة ، وضرورة استثمار واقعها أمراً لا يختلف فيه اثنان .

ولنسمع إلى جورج جقمان يقول في إحدى مقالاته : ((يسعى هذا الكتاب لرصد وتحليل دور الحركة الطلابية الفلسطينية ، خاصة في فلسطين ، خلال ما يزيد على قرن من الزمان ، وهو بهذا من الكتب القليلة حول الموضوع ، بل ربما كان الكتاب الوحيد الصادر خلال العقد الحالي)) (٤).

ويقول قسطنطين زريق موجهاً خطابه إلى الطليعة الجامعية : ((هناك وظيفتان رئيسيتان للمثقفين الجامعيين)) (٥) ، ركز في إحداهما على الدور الفكري الذي يخوضونه ، ودورهم في التأثير والتأثر الصراح .

حري بنا - نحن أبناء الشمولية في الفهم - أن نستفز كل طاقاتنا وإمكانياتنا من أجل صيانة حق مغيب ، وسد ثغرة لا زلنا نؤتى من قبلها ، ولا بد لنا من توجيه الخطاب الواعي ، واستثمار حركة المثقفين ، وإيجاد الروابط الثقافية المنتجة؛ التي يكون من شأنها إثراء الواقع الأدبي لصياغة تراث وحضارة لهذا الشعب المبدع.

٤ الحركة الطلابية الفلسطينية - الممارسة والفاعلية ، عماد غياظة ، ط ١ ٢٠٠٠ م ، مواطن - المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية - رام الله ، ص ٥ .

٥ . المصدر السابق ، ص ٧ .

ولسنا بحاجة إلى كبير جهد لبيان أن الدور الأدبي عموماً ، والشعري خصوصاً ، يمثل معتمداً ومستنداً لهذا الجيل الناشيء ؛ يمكننا إن أحسننا صياغة المعاني قبل بناء اللفظ أن نتقدم بالناشئة خطوة إلى الأمام ، وإن أبدعنا في غرس حكمة ما بين كل صدر وعجز ، وقبل اختتام أي قافية ، فلنا أن نتصور حجم التأثير .

باختصار ، فإن شريحة الأطفال هي دعامة أساسية في المجتمع ، وإن شعبنا الفلسطيني شعب كريم جواد ، وتفيد الإحصائيات السنوية أن نسبة الأطفال في المجتمع قد استوعبت حجماً واسعاً في قرص البيانات الكلية ، وإن رعايتهم واجب شرعي ، وضرورة بشرية وحاجة إنسانية ، وحكمة جهادية ، فهم الإمتداد الطبيعي للصراع ، وعلى أكتفاهم ستحمل المسؤوليات ، ولذا كان لا بد من بنائهم والتأثير فيهم بكل كلمة وعمل منتج .

سادساً : مظاهر الدمار المستشري :

أنتكأت الجراح ، وزادت المظاهر مأساوية وألماً .

إنه الدور المرسوم، تسير في تخطيطه المؤسسة الصهيونية العسكرية المجرمة ، وتتولى تنفيذه آليات الرعب والدمار ، بكل صلف وعنجهية ، فالكيان الغاصب لا يُحمي بغير دمار يعم ، وبلايا تظم ، وفناء يستبيح الأخضر واليابس .

قلما تدخل حياً فلسطينياً في أي بقعة شئت ، إلا وترى فيه من الدمار ما يطغى على كل تصور ، وإذا أمعنت السير تغذوا الخطى تلقاء حي آخر ، فستقرأ في عيون الناس وجدران المنازل حجم المعاناة والأسى .

هذا بيت دمره الاحتلال بالكامل ، هنا كان بيت ، ذاك البيت تركت مجنزرات العدوان عليه قبله قاتلة ، تلك المدرسة هدمت أسوارها ، ذاك المتجر هدم جداره وسُرق ، تلك الصيدلية هدمت على رأس صاحبها ، ذاك الجدار المائل رحمته جرافات العدو فلم تكمل عليه ، هؤلاء البشر لا يجدون غير شطر بيتهم ليسكنوا فيه ؛ فشطره الآخر مردم (٦) ..

هذه هي طبيعة المعركة ، إذا سرت في أرض فلا تغادرها قبل أن تترك عليها بصماتك الواضحة التي يقرؤها حتى الأمي الجاهل ، وإن السائر في أرضنا كلما خطا عدة خطوات لايمك إلا أن يقول : الصهاينة مروا من هنا ..

لقد طال الدمار البيوت والأحياء ، ولم يرحم المدارس والجامعات ، وصبَّ جام غضبه على المساجد والمآذن ، ولم يعف أحداً من إجرامه ، حتى حظائر البهائم .

بين كل هذا الركام:

^٦ مجلة المنبر ، وزارة الأوقاف الفلسطينية ، العدد ٣٦ ، سنة ٢٠٠١ ، ص ٥١ - ٥٨ .

لو تخيلت شاعراً غريباً يمر على الزهور الفلسطينية الذابلة ،
والنرجس الفلسطيني المسحوق ، لساقك الخيال إلى إبداع شعري خلاب ، فكيف
إذاً بمن عايش الحدث ، وخامر المأساة ، واحتوته دقائق وساعات المشاهدة
والمعاينة ، لا تلمه إذا ألف ديوان في زهرة ديست ، أو مؤذنة تهوي ، أو بيت
صار مجمعا لنقابات العنكبوت بعد أن خرب .

كيف لإنسان موهوب أن يخفي مشاعره ويلجمها بلجام الصمت
الخائق ؟

كيف لمن يستطيع خياطة الكلمات أن يكتم وجوده ، ويدفنه بين جنبيه
وهو يرى ما يذهل الصخر الأصم ويزلزله؟

إن ما قاساه شعبنا يفوق الاحتمال البشري ، فلقد خاض مراحل
الابتلاء الصعبة بتجاوز آلامها ، ليعترف بعد كل مرحلة أن الصبر من الله ،
وإن الإرادة أقوى من سلاح الطاغوت .

هكذا هو الحال أمام الشعراء ، وقد تشبثوا بهذه الأرض رغم قساوة
العيش فيها بالنواجذ والأظافر ، فهم جزء من الشعب ، يتقاسمون معه البلاء
حصاة بحصاة ، ثم بعد ذلك ؛ يصنعون من الجراح منائر ، ومن البيوت المدمرة
منابر ، ومن الحجارة المتطايرة فتائل ، ومن حياة البؤس والشقاء دواوين
بالشعر تفاخر .

لعل الدمار بمشاهده المؤثرة كان جانباً مميزاً نال اهتماماً مميزاً فأقبل عليه الشعراء بنهم ، فهم حينما يصقلون أقلامهم ؛ يغالبون الشوك ليصلوا إلى الصبر الدافق الدافئ ، وليس بين جوانحهم إلا قلوب تنبض بالإنسانية والرغبة في الحياة بكرامة ، فالهمّ شامل ، ولا يجدر بشاعر أن يذكر جانباً منه ويغفل جانباً آخر تحت أي ذريعة .

وباستعراض لما دون الشعراء في قصائدهم في هذا الباب ، تجد منهم تسليط الضوء على جوانب الدمار ، لإبرازها بعد أن غيبتها أجهزة الإعلام المسيّرة والموجهة ، وليحطموا الحواجز المفروضة على الصحافة ، كيما تقفز فوق هذه المشاهد الكارثية .

فراح الشعراء يتناولون صور الدمار في حالة توأمة ، فكأنهم ينفخون الروح في شعر الأطلال البائد ، فذكروا الحنين إلى البيت ، والأسى لفقده ، وناحوا على المدارس ، ورثوا حال الحداثق ، ووصفوا كل الآثار المحروقة التي كانت عيناً في يوم من الأيام مضي ، وسجلوا الأحداث ، وأرشفوا الوقائع ، وداسو على السخط والجزع والخنوع ، فبرهنوا على عمق الصمود الأسطوري ، واستجلبوا الشواهد الفولاذية من صبر أناس فهموا مقصد العدو ، فخالطت مآسي الدمار بشاشة صبرهم وتحديهم فانتصر صبرهم .

صرخة

أوجه صرخة حري إلى مجاميع الأدب العربي ، أن لا تغض الطرف عن هذا التدوين ، وإن لا تتجاهل إبداع المعذبين المحرومين ، فما كانت القصائد إلا ترجمان واقع ، ولسان أمة ، وصوت واقع ، وهدير حادثة ، وبإمكان المجمع الأدبية الموزعة على طول البلاد وعرضها أن تتبني هذه المواهب والقدرات ، وتسهم في دعمها ونشرها نصره لشعب مضطهد ، وحفاظاً على تراث من العار أن تهلكه السنين ، أو يطويه الزمان في أضبارات الغفلة والتناسي .

سابعاً : الخيانات القاتلة

صورة قاتمة ، لا بد لنا أن نذكرها لنبصر الناس بها حتى لا يقعوا في شركها ، والتاريخ والأيام دول ، وما أشبه اليوم بالبارحة (٧)(٨).

نحن نتحدث هنا عن شعب رفع لواء المقاومة ، واستنفذ كل مجهوداته وكفاءاته وطاقاته لمواجهة عدو سلبه حقه ، وشرده عن بيته ، وسطا على حقله ، وانتزع منه كرامته ، حتى إذا بدت مرحلة الصراع ، وتلاحم المعسكران ، أتت

^٧ للتوسع والشواهد ، انظر: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، ص ٤٠ - ٤٢ - ٨٥ - ٨٦ - ٩٠ .

^٨ ارجع إلى : بين الرشاد والنتيه ، ص ١٠٥ وما بعدها .

شعبنا من الخلف ، وطُعن بخنجر عربي مطبوع على مقبضه شعار الصهيونية
والماسونية الماكرة .

فسمة العدو أن يوجد أعوانا له يعينونه على الوصول لمبتغاه ، وهذا
لا يستغرب منه بحال ، فهو رغم شراسته وعدته وعتاده ، يريد أن يخفف مقدار
الخسائر في صفوفه قدر المستطاع ، فيعمد بالحيلة القديمة المتجددة في كل
صراع إلى إيجاد الوجه الخائن الذي ينوب عنه لتنفيذ مخططاته العدوانية .

سل الشعب الفلسطيني كم قاسى وعانى من هذه الظاهرة؟؟

سل الثوار عن الغدر الذي أوصلهم إلى المنافي؟؟

سل جثامين الشهداء بأي رصاص أرديت ؟

سل الشعب عينه بأي وجه مررت عليه سياسات العدو جهاراً نهاراً .

حين يتملكنا الذهول ، وتشط بنا تيارات العجب ، فإننا نوجه ذلك كله
إلى طبيعة هؤلاء الذين باعوا ضمائرهم بثمن بخس دراهم معدودة ، وإلى من
تمالؤوا مع الخصم للقضاء على الأخ والقريب والجار (٩) .

^٩ انظر : الشباب المسلم في مواجهة التحديات ، عبد الله ناصح علوان ، دار القلم - دمشق ،
الطبعة الرابعة ٢٠٠٢م ، ص ٧٣ - ٧٩ ، وفيه كم من مفيد من المعلومات الإرشادية .

إن مثل هؤلاء قد وصلوا درجة من الحقارة والوقاحة وصلت بهم إلى ضرب شواهد التاريخ بعرض الحائض، فضربوا الذكر صفحاً عن الوزير الرافضي في زمن الخلافة في بغداد، حين تأمر مع التتار لاحتلال حاضرة الخلافة، فكان جزاؤه أن كان أول مذبح على بلاط الدولة.

وتناسى هؤلاء، من أمثال أبي رغال، أن عدوهم ماكر خبيث يعلم أن من يخون أرضه وشعبه وقضيته يمكن أن يخونه، وبالتالي، فهو لا يأمنهم منقال حبة من خردل، وسيدوسهم ريثما يصل إلى النقطة التي وضعها لهم في برامجهم ومخططاته.

لن أسترسل في الحديث، فحال الخيانة ومآله مسطور في كتب الأقدمين لمن أراد أن ينير بصيرته بمعرفته، ولكنني أفف هنا مع ماضي شعبي الذي أكنّ له كل الاحترام والمحبة، فهذا الشعب أخذ بجهله تارة، وأخذ في مرحلة تحرره تارة أخرى، وقد دفع ضريبة ذلك في كلا الحالين من دم شبابه وحدود أرضه على حد سواء^(١٠).

لن نكون مثاليين في طرحنا، بأن ندعي أن الشعب الفلسطيني طاهر كله، لا تجد فيه من يشذ عن القياس، فهذا أمر نفتته جعبة التاريخ بما حملته من قصص وشواهد، ويأباه كل عقل راشد، فالمجتمع مزيج متداخل، تجد فيه

^{١٠} اقرأ في ذلك: المسار، ص ٥٧.

الأناني والنفعي والوصولي والمتسلق والمنافق ، شأنه شأن كل شعوب الأرض ، وهذه هي الفئات التي يبحث عنها الإستعمار لجعل مآربه قابلة للتطبيق ، فالمال عنده متوفر ، ووعوده لا تنفد ، ومتخصصوه في البحث والتنقيب والحوار والاستقطاب حصلوا على براعة جيدة .

وقد شهد القاضي والداني ، والعجم قبل العرب أن هذا الشعب الصابر ما لانت له قناة في مقارعة خصومه ، برغم قلة إمكانياته، ولكنه أثقل من كثرة الهموم ، وزلزلت أركانه عندما كان يفاجئ في كل مرحلة بوجود زمرة نفعية أو متواطئة قد قبلت بما في يد المستعمر ، وحنث رأسها له ولرغباته ، فصار يقلبها كيف شاء ، ومتى شاء ، دون أن تعصي له أمراً ، حتى وضعت شعبها من خلفها في بوتقة معزولة ، كالأعمى يسير إلى حيث أراد قائده ، وفي نهاية المطاف يجد الشعب نفسه تحت مقصلة العدو^(١١).

كأن الشعب الفلسطيني لا يكفيه تخاذل العرب ، وعمالة حكامهم - إلا من رحم ربي - لتتبعث من بين صفوفه أناس هوت بهم الرجولة الزائفة إلى وحل الخيانة ، وزين لهم الاستعمار الشيطاني أعمالهم ، فهم واحد من صنفين ، إما خُدعوا وخدعوا ، وإما خانوا بارادتهم فأجرموا ..

^{١١} انظر : بين الرشاد والتهيه / مالك بني نبي / دار الفكر - دمشق ، الطبعة الثانية ١٩٨٨م، ص ١٠٥ - ١١٠ .

وماذا يفعل شعب تملأت عليه عصابات الإجرام ، وكادت به دول العالم ، وتخلى عنه القريب قبل البعيد ؟

ماذا بيده ؟

وبأي سلاح سيقاوم إذا كانت الخيانة من الرأس (١٢)(١٣) .

إن الشعب الفلسطيني أمام خيارين لا ثالث لهما ، إما أن ينكسر ويخسر روحه المعنوية ، ويركن إلى القبول بالأمر الواقع ، ويطأطئ رأسه إلى الأبد ، وهذا ما لم يتم ولن يتم برغم التواطؤ الدائم .

وإما أن يستمر رغم تخاذل مدّعي النخوة ، ومن اختاروا الطريق الذي لا شوكة فيه ، فأمنوا على أنفسهم وأموالهم وملذاتهم ، وبالتالي ؛ عليه أن يتعلم من الماضي حتى لا يلدغ من جحر الخونة في حياته وثوراته المستقبلية مرات ومرات .

فالعاقل الحكيم من اتعظ بغيره ، فإن لم يأخذ ذلك فليتعظ بنفسه على أقل تقدير ، وفي تراث شعبنا ما يكفي من صور وأحداث تشكل لديه فهماً سليماً

^{١٢} بين الرشاد والتهيه ، ص ١١٤ و ١٩٨ وفيها زيادة تفصيل وبيان .

^{١٣} هذا ما حصل مع رسول الله ، فانظر : المنهج الحركي للسيرة النبوية ، منير محمد الغضبان ، دار المنار - الأردن ، الطبعة السادسة ١٩٩٠ م ، ص ٢٣١ - ٢٣٣ .

لطبيعة الصراع وأطرافه وعناصره ، وبغير هذا لا يستقسم منطق ، ولا تقوم حجة ، وقرأ أجديات الصراع الفكري ومراحله يأتيك بالخبر اليقين (١٤).

وقد استوعب الشعراء هذا الجانب ، وفصلوا فيه ، وأعطوه حقه في الأشعار ، وتراهم يذكرونه صراحة في قصائدهم ، وتورية إذا دعت حاجة أو لغرض من أغراض الشعر اقتضى ذلك ، ولكن كثرة الطعنات القاتلة التي غرست في خاصرة شعبنا وظهره ممن ينتسبون زوراً وبهتاناً إلى ترابه الطاهر وأمتة العفيفة لا يحجر الأقلام ، فالشاعر الفلسطيني معروف بأنه ثوري الطابع ، والثائر العقائدي لا تكسر الزوابع شرعه ، ولا تنتثر النسائم غراسه.

وجه الظلم السافر هذا برغم لظى فعله ، ووضاعة تخطيطه ، وإتقان برامجه، قد أحال الناس إلى طلب العلم ، وإلى التفتيش عن ضروب الحقيقة ، وبذا خاب فآلهم ، فكانت الأحداث الخيانية التي أريد بها تمزيق أواصر الشعب ووشائجه ، وكسر إرادته وعزيمته بمثابة هزة حركت العقل النائم ، وارتعاشه فتحت العيون النائمة أو المغيبة عن الوعي ، فكانت بذلك رافداً من روافد الفهم السليم لمجريات الأمور ، وخدمت مرحلة التمحيص والاختبار والاختيار من حيث لا تدري ولا تحتسب ، وقد أرادوا بها أمراً ، والله أراد أمراً ، ولا تقف أمام ارادة الحكيم الجبار قوة .

^{١٤} الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، مالك بن نبي ، دار الفكر - دمشق ، الطبعة الثالثة ١٩٩٨م ، ص ٩.

والشعراء الفلسطينيون أمام حالات كهذه لا يكتفون بالنقد أو الشتم أو تبيان ما جرى ، ولكنهم في الوقت ذاته يختصون ببيان موطن الداء وأسّ البلاء، ويكشفونه للناس حتى يحذروه.

فتراهم يشنون حملات قوية موجه لتجفيف مواقع الفتن ، أو الانغماس في الشهوات ، أو الانجرار وراء مقدمات الإسقاط الأخلاقي أو الأمني، ويشرعون سيوفهم في وجه كل رذيلة ، ويسلطون الأضواء على كل منبع للفضيلة ، وهم بذلك يتبنون أن الثقافة أصل التغيير^(١٥) .

اشتملت القصائد الشعرية التي تناولت هذا الجانب على بيان رذائل حب الذات ، وحملت الازدراء لكل نفعي ، وأسقطت في نظر الناس كل وصولي ومتملق، بوصف هؤلاء وهؤلاء تربة خصبة أمام المستعمر وزبانيته ، يجدون فيهم القابلية للتجاوب معهم في مرامهم وغاياتهم ، بعكس المعدن الصلب والصافي من الرجال، ممن تكلوا بالنور ، وخفقت قلوبهم بالذكر والترتيل ، وتزينوا بالمعالي والمكارم ، فأنى للعدو أن يستعمل من لا يؤجر عقله، ولا يبيع ضميره ؟

ولا مجال لاستغراب أن الدعوة الإسلامية المعاصرة قد قامت لتحرير العقل من قيوده التي صدنت ، ولمحاربة الرذيلة أنى كان باعثها وفاعلها ، فنحن

^{١٥} انظر : نظريات التنمية السياسية المعاصرة ، نصر محمد عارف ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ط ١ ١٩٩٢ م ، ص ٣٠٦ - ٣٠٨ .

بالقرآن نسير ، وله نجهد وندأب ، فأنى لأمة ترجو لقاء الله واليوم الآخر أن
تزل قدمها بعد الثبوت ؟

وبأى وجه حق ينساق بشر إلى متاهة موالاة العدو وهم تتلى بين
ظهرانهم : ((يا ايها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم)) (١٦) ؟
وإن لب دعوتنا هو ((عمل بمقتضيات لا إله إلا الله في الواقع المشهود
((١٧)(١٨). بكل معانيها ومدلولاتها ، وهذا يعطينا قوة إلى قوتنا ، وعزيمة إلى
عزائمتنا ، ونوراً تستضيء به بصائرنا.

وهل من غاية أسمى من أن نصوغ جيل الارتباط بالله ومنهجه ، لا
بالاستعمار ومؤسساته وأهدافه ؟

١٦ . سورة الممتحنة / الآية ١٣ .

١٧ . هلم نخرج من ظلمات التيه ، ص ٨٨ .

١٨ . الولاء والبراء في الإسلام ، محمد بن سعيد القحطاني ، الفتح للاعلام العربي - القاهرة ،
٤٥ - ٢٨ ، ص - ١٤١٧ ، الطبعة السابعة .

إشكاليات الأدب الفلسطيني

يقاسي الأدب الفلسطيني مجموعة من العوامل السلبية التي تحاصره من حيث شكله ومضمونه ، ومن أهم هذه الإشكاليات :

أولاً: بضاعة مزجاة !!

من السهل أن تجد لأعمالك ألف ناقد ، يبين فيها جوانب الرقي ومواطن الضعف ، ولكنك بحاجة إلى منحني الرسم البياني للتطلع إلى تاريخ أي أمر تقوم به ، فالأمور مجزوءة ، وإنما تجد لكل شيء أصلاً وجذوراً .

اللغة العربية - لغة القرآن - قد اعترأها في عصور الإسلام المتأخرة ضعف ووهن ، وصارت بحاجة إلى يد حانية تطبطب لها على جراحها عليها تلتئم ، فقد عكّر صفوها دخيل المصطلحات ، وشاعت لها البدائل من اللهجات التي تعارف عليها الناس واصطلحوا على العمل بها ، حتى أصبحت ركافة اللفظ سمة بارزة ، وجفاف المعاني صفة واضحة ، وتغلغل إلى كبد اللغة سوس الخلط وعفن التجديد.

وقد وصلتنا اللغة - التي تذوب أناملنا ونحن نتأمل فيها حتى صرنا نعشقها حداً لا يمكن وصفه - ضعيفة ركيكة ، هجر الناس سحرها ، وارتضوا

بالدون من الكلمات واللهجات ، حتى إنه ظهرت بعض التجمعات تدعوا إلى تدعيم فكرة ابتكار لغة سهلة يتفاهم بها الناس كبديل عن اللغة العربية الأم .

لن أجعل الاحتلال شماعة ، ولكن الخيوط التي تحرك هؤلاء متصلة بأصابع الاستعمار الدولي ، فمجرمو العصر يدركون تمام الإدراك أن اللغة هي أساس فهم القرآن ، وإذا تمكنوا من العبث بمكانتها أو الحط من سموها ، أو إبعاد الناس عن بديعها ، لاستكون لهم خطوة ناجحة ، في طريق التغريب الطويل .

من الحمق بمكان أن نطفئ سراج عيوننا عن الواقع الذي مرت به لغتنا الرؤوم ، فأين الوفاء بذلك ؟ وأين حفيف الانتماء للغة أعطتنا حتى بنت كياننا ؟

هذه الأغلال الثقيلة ، والإنتكاسات المتتالية ، والاستهتار من جانب أبناء اللغة في صيانتها من التحريف ، كل ذلك قادنا إلى نفق مظلم ، صرنا فيه نسير يمناً ويسرة على غير هدى ، حتى استبيحت القواعد ، واحتلت البلاغة ، وأسر البديع ، وانهار صمود المبنى ، وباتت اللغة تشكو إلى الله ما نابها من البلاء .

وبصبر جميل ، تلقف الجيل الحاضر من الأدباء والشعراء هذه اللغة وما فيها من العيوب التي يندى له الجبين ، فبنى عقله وفق هذه المشارب

العكرة، وترعرع على اضطراب لغة تثنى ، حتى صارت المدارس تنزل بمستوى الحديث إلى مرتبة واهية لكي يستطيع الطلبة فهمها ، فبدل أن تخطوا الأمة خطوات النهضة ، صارت أكثر العقبات تواجهنا هي كيفية بناء المنطلقات السليمة للغة التي سيبدأ منها أي إبداع .

لقد قمت بتدريس اللغة العربية ، واطلعت على المستوى التعليمي الذي تضمنته المناهج ، ولست أوم واضعها - مع وجود بعض الأخطاء والعثرات - ولكنني أقدر أن بعد الناس عن اللغة في الخطاب الإعلامي والمجتمعي والأسري سلّم المدرسة نماذج من " الطلبة الخام " ، تقتضي الضرورة أن تتدرج معهم في ألف باء اللغة حتى ولو مضى على التحاقهم بالمدارس سنوات طوال .

ازاء هذه المعلومات المقيدة ، نزل سقف العطاء العام ، وصار الطالب ينتقل من مرحلة التعليم الأساسي إلي الثانوية وهو يحمل مفاتيح التعامل مع اللغة فقط ، حتى إذا وصل إلى مرحلة الدراسة العليا كان حاله لا يعدو أمرين :-

الأول : أن يقصد أبواب العلوم الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية أو العلمية المنتشرة في الكليات الجامعية .

والثاني : أن يدخل إلى كلية الآداب في قسم اللغة العربية ، وهذه هي النوعية التي يعقد عليها الأمل الأدبي .

فالنوعية الأولى وهم أغلب شرائح المجتمع من الطبقة المثقفة بيتعدون يوماً بعد يوم عن معين اللغة ، وبالتالي ؛ يزداد فقرهم بالعلم فيها ، ويتخرجون من كلياتهم التخصصية وليس معهم إلا ذكريات بائدة من علوم اللغة العربية وتفرعاتها .

والنوعية الثانية ، هم الذين طرقتوا بوابات التخصص العربي ، وتوزعوا على كليات الأدب والشعر والنقد والبلاغة ، واتصلوا بقواعد اللغة ، وأولئك فيهم من محتاجي العون الكمّ الكبير ، وإن ما تصدره الكليات التخصصية للمجتمع لا يعدو كونه عدة كوادرات ذات كفاءة عالية أو متميزة ، يمكنهم من خلالها التوسع والعطاء والإبداع.

عائق كبير ، وسد أمام سيل الطموحات والآمال والتوقعات ، جهل مدقع ، وبعد منسي ، وجيل تائه ، ومتخصصون دون خط الإبداع ، ومن نجا من هذه وقع في تلك ، ومن نجا منها جميعاً اصطدم بحواجز الواقع المجتمعي ، ولا ترى من يفلح إلا صاحب إرادة طوفانية ، لا تقهرها صعوبات ، ولا تحدها آفاق .

ثانياً : الأنضباع بالغرب وأدبه

بدلاً من تأصيل التراث الأدبي الهائل الذي ورثه أدياء هذا العصر ،
 ظهرت طائفة من الأدياء في زماننا تغاضت عن كل مثالب الحضارة الغربية
 وسلبياتها التي تغمرها من رأسها إلى أخمص قدميها، وباتت عيونهم لا ترى إلا
 أضواء الشوارع ، وناطحات السحاب ، فلم يكفوا أنفسهم عناء المحاولة في
 البحث عن بواطن هذا الشعب ، أو أسرار تركيبته ، أو الظلام الدامس الذي
 يعشش في قلوب أفراده .

أما التقدم التكنولوجي فنحن لا ننكره بحال ، وكذا الوضع المادي الذي
 وضعهم في حال من السعة والترف والرفاهية المفرطة^(١٩)، ولكننا - أبناء
 الإسلام - تعلمنا في أساسيات فهمنا الإسلامي أن نبنى أحكامنا على الحقائق
 المدروسة ، والدراسات المنهجية، إلا على أمر يريد غيرنا إظهاره إلينا لنحكم
 عليه به .

هذا الإغراق في المادة حد الإشباع لا يشكل آله ضغط محكمة على
 رقابنا ، فنحن لنا حضارتنا العريقة ، ولدينا تراثنا الخصب ، ولدينا العقل الذي
 نال أهلية الإبداع ، فلماذا نسلم رقابنا إلى عدونا الحقيقي ؟ ونستسمحه أن يقبض
 عليها بحزم ، أمن العقل هذا ؟!

^{١٩} . انظر : الإعلان الإسلامي ، علي عزت بيجوفيتش ، تحقيق وترجمة : محمد يوسف
 عدس ، دار الشروق - القاهرة ، الطبعة الأولى (١٩٩٩ م) ، ص ٧٥ .

وبأي منطق نجعل من مفكري العالم الغربي يرتقون في أذهاننا إلى
درجة يصبحون فيها كأنهم مفكروننا ؟

ولماذا صرنا نتماشى مع دعاوى الغرب دون أن نضعها في ميزاننا
الخاص لنحكم عليها بها.؟

إن هذا من سوء التقدير ، وإن عاقبة الانضباع غير محمودة العواقب
في الحال والاستقبال .

دعونا هنا نتحدث عن بعض جوانب الانبهار غير المبرر في ثقافة لا
تمت إلى ثقافتنا الخاصة بأي صلة ، فأدباء " عصر الدهشة " مخدعون بكل ما
جاء عن الغرب ، سمّه ودسمه ، فتراهم قد استحالوا أبواقاً للأدب الغربي ،
يقتدون بهم في سيرتهم وصورتهم ، ويجعلون من أسمائهم مشاعل، ومن كلماتهم
ترانيم تطرب لها الآذان ، حتى مبادئهم التي رفعوا لها الشعارات صارت تلقى
لدينا قبولاً وفق سياسة الخنوع التام التي أتقنها هؤلاء " الأدباء " (٢٠).

هؤلاء التائهين قد رفضوا قرار الإبرة المغناطيسية في بوصلتهم ،
واختاروا أن يلاحقوا " فلاش " الأنوار البراقة التي ترسل تجاهنا من هنا وهناك ،
تريد منا أن ننفصل عن تاريخ زاهر ، وحركة علمية قدنا ركابها ، فكننا أهل
الأدب وأهل الفن ، وأهل العلم التجريبي والتجريدي ، وتركنا بصماتنا الواضحة

٢٠ . انظر : الإعلان الإسلامي ، ص ٤٩ .

في علم الطب والفلك والجغرافيا والعلوم السياسية وفنون التعامل الدولي وأساسيات البناء والهندسة وغيرها.

شاء أدياء عصر الدهشة أم أبوا ، فإن عراقة هذه الأمة وأصالة نبعها سيعودان بها إلى معرفة ذاتها ، وتقدير هويتها وكيونتها ، لتعيد إطلاق شرارة البدء في عملية الترشيد ، ومسيرة التجديد على نور وبصيرة ، ليجددوا مجداً درس ، وحضارة طمست ، وماضياً قد تلهى عنه بنوه حتى أدمنوا على أفيون الغرب وأدبه ، وتناسوا أصل وجودهم .

الأمر المثير للدهشة ، أن نجد مثل هؤلاء الذين وصلوا إلى مرحلة علمية متقدمة ، باتوا يرددون شعارات لا يعقلون مراميها وأهدافها ، بل هم كالبيغاء يعيد الكلمات التي يسمعونها ، بلا عقل ولا وعي .

وهذا ما بينه الأديب الأستاذ محمد قطب حين قال : ((والغريب في الأمر ، أن موقفهم ذلك لم يصدر من عند أنفسهم ، فقد كانت كتابات المستشرقين تصدر النغمة الأولى ، فيتلقفها دعاة الغزو الفكري ، ويرددونها بلا وعي أو ربما بوعي ، لتخذيّل كل من يحاول إعادة الأمة إلى مجدها القديم)) (٢١). (٢٢)..

٢١ الإعلان الإسلامي ، ص ٨١ - ٨٠ ... وانظر كذلك : هلم نخرج من ظلمات التيه ، ص ٦٤ - ٦٥ .

٢٢ . المصدر السابق ، ص ٦٦ .

ويقول في موضع آخر : ((كان أول التيه : أننا حملنا أدبنا العربي كله ، فوضعناه على الميزان الغربي ، فاتضح لنا - ويا للأسف - أنه ليس عندنا أدب)) (٢٣) . فأبي ميزان نحتكم إليه ؟؟ وكيف يصنع من كان القاضي غريمه ؟. أنها آفات عصرنا هذا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم .

كلمة حق :

لفت إنتباهي أثناء تجوالى بين ما وقع تحت يدي من مؤلفات ومصادر تم تهريبها بعيداً عن اعين السجان : كتيب صغير فيه من الخير الشيء الكثير ، وقد غلفه الكاتب بهذه الحكمة التي تصلح للاستدلال بها في معرض حديثنا عن هذا الصنف من الناس ، يقول الدكتور علي الحمادي : ((أثبتت الدراسات أن كل إنسان يستطيع أن يكون مبدعاً ، ما عدا صنفين من البشر ، الأول : هم المجانين ، والثاني : هم الذين يقررون أن لا يكونوا مبدعين)) (٢٤).

مثل أولئك ؛ وهم غرقى في حمى الفرح واللهث وراء المدنية البراقة في الغرب قد قبلوا أن يضعوا على رفوف النسيان كل ماضيهم وحضارتهم، وهم بالتالي قد شطبوا ذاتهم ، وألغوا عقولهم ، وطبعوا على رؤوسهم بخط أيديهم عبارة : (للإيجار) !

٢٣ . هلم نخرج من ظلمات التيه ، ص ٦٦ .

٢٤ . (٣٠) طريقة لتوليد الأفكار الإبداعية ، د.علي الحمادي ، دار بن حزم للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ١٩٩٠ م ، الغلاف الخلفي للكتاب .

نتيجة مؤلمة ، ومحصلة مأساوية ، حينما ترعى أرض فلسطين شاباً وترسله ليتعلم ، ويعود لها بما يرفع مكانتها ويكسر عن مآذنها الأغلال ، فتراه يعود وهو يحمل لها أغلالاً أخرى ، ليضيف إليّ الهمّهماً ، وينثر فوق الموت الرماد.

إن هؤلاء لم يضيفوا شيئاً إلى رصيد الأدب الفلسطيني المحفوظ في ذاكرة الأيام ، فهم ليسوا إلا رواد علم المحاكاة ، لا يتصور لأذهانهم أن تتفتح مقدار أنملة فوق ما شاهدوه ورأوه وسمعوه ، وبالتالي ؛ كان الأدب الصادر عنهم يصب في خدمة كل الإتجاهات إلا أمتهم ، وينادي بالتقدم على كل صعيد إلا في مجال أدبهم الذاتي ، وكل إناء ينضح بما فيه .

نعم .. إنهم صورة نجاح المستعمر في خطواته لاستعباد البشرية ، فها هو بث من بين ظهرانينا أناساً يسوقون إيجابياته ، وتتغاضون عن سلبياته ، وأي قيمة تعدل ذلك ؟ فالعدو عرف المعركة بأسسها ، وترك لنا الانهيار بأضواء وعمارات مدنه .

ما أجمل كلمة المفكر الإسلامي مالك بن نبي حين وصف حال الإستعمار مع مثل هؤلاء فقال : ((ثم إذا نظرنا في الصراع الفكري من الزاوية

الأخلاقية ، نراه يحتوي على : دهاء ، مكر ، خداع ، نهم ، شراسة ، دناءة ، سفالة ، نجاسة ، خبث ، خيانة)) (٢٥). والله إنه لحق .

وإلى كل الذين انطلت عليهم حيل الغرب والأعبيه ، إن شعبكم بحاجة ماسة إليكم ، لتنتشلوه من حضيضه الذي أوقع فيه ، فمدوا له يد المساعدة ، ولا تقطعوا به الحبل ليهوي في قاع بئر الاندثار ، أنتم أبناء أوطانكم ، تربطنا بكم صلات ووشائج وروابط تجذب كل عاقل ، فحتى متى أيها الناس سنسير في الضياع برضانا وموافقنا !!؟

ولعلنا فيما ذكرناه قد أوضحنا لدى القارئ الكريم تلك الملابس التي صاحبت مراحل كتابة الشعر لمن أعجب بالغرب ومدنيته وحضارته ؛ حد فقدان التركيز ، ولكن الخطر الحقيقي لا يكمن في الضرر الناشئ على أشخاصهم ، بل إن المصيبة العظمى حين يقوم هؤلاء بتصدير مواهب المحشوة بالأدب الأعور ، وإشاعتها بين الناس ، فلا تجد هؤلاء - وقد أوتوا من العلم مكانة - إلا وقد ضمخوا أشعارهم بلفظ أجنبي ، أو حاكوا أسلوباً مبتكراً في الغرب ، أو استحدثوا في علم العروض أو أساليب النظم أموراً لا رصيد لها في لغتنا ، ولا تتم عن قصد إلى العطاء المثمر .

لن نرفع السيف على رقاب هؤلاء ، ولكننا نناشدهم - وهم أهل بصيرة - أن يضعوا لبنة في سور الحصن الحامي للغة ، وأن يخدموها كما

٢٥ . بين الرشاد والتهيه ، ص ١٩٨ .

ربتهم ، وكما صنعت منهم أرقاماً لها ثقل بعد أن كانوا على هامش التاريخ أصفاراً .

فيداً بيد نكمل المشوار ، وعزم الرجال يحيي الرجال ، فهلما بنا ننهل من جدول الأدب الأصيل ، نستلهم القوة التنفيذية ، والجرأة الإبداعية ، وليكن شعارنا على الدوام.. هؤلاء بنوا حضارتهم ، فلنبنى حضارتنا وأدبنا .

من الأجدر بنا ونحن نلتف حول مائدة الأدب العربي ، أن نطهر النوايا ، ونضيء فيها سراج الإخلاص ، ولندع المجال أمام العقول أن تتلاقح ، لنخرج بمشروع مشترك يكون فيه المستفيد الوحيد هو هذا الشعب وعراقته المغمورة.

هنا ؛ لا بد من التوجيه الصادق ، والتخطيط السليم ، ورسم السياسات بعيدة المدى ، والأهداف المرحلية ، وتوضيح الوسائل والأساليب ، ونضع الموازين السليمة للنقد والارتقاء ، وما أروع ما قد صاغه الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله حين قال :-

((نحن نريد الفرد المسلم ، والبيت المسلم ، والشعب المسلم ، ولكننا نريد قبل ذلك أن تسود الفكرة الإسلامية حتى تؤثر في هذه الأوضاع ، وتصبغها بصبغة الإسلام ، وبدون ذلك لن نصل إلى شيء ، نريد أن نفكر تفكيراً استقلالياً يعتمد على أساس الإسلام الحنيف ، لا على أساس الفكرة التقليدية التي جعلتنا

نتقيد بنظريات الغرب واتجاهاته في كل شيء ، نريد أن نتميز بمقوماتنا وشخصيات حياتنا كأمة عظيمة ، تجر وراءها أقدم وأفضل ما عرف التاريخ من دلائل ومظاهر الفخار والمجد)) (٢٦) ..

ثالثاً : فقدان المجمعات الأدبية

ليس من الصواب أن نجعل الاحتلال شماعة نعلق عليها كل ما أصابنا ، فإن التجربة والواقع الملموس ومجريات الأمور على أرض العمل تثبت أن هناك بصيص أمل لمجتهد مثابر أن يقتحم الميدان ، ولكن ؛ من يعلق هذا الجرس ؟ ومن يقول ها أنذا ؟؟

انظر إلى المجتمع الغربي نظرة مجردة ، إن له قانوناً يتعامل معه ، جعل إمكانية الازدهار مطروحة بجدية على مختلف الأصعدة ، إنه قانون العمل المؤسساتي ، الذي يصهر قدرات الفرد في إطار المجهود الجماعي ، وبالتالي؛ يرتفع سقف الصواب في العمل والإدارة بشكل مطرد .

رشح من الإحصائيات المسطورة في كتب الإحصاء الأوربي ما يشير إلى ظهور نماذج متميزة في مجالات تخصصية ، فقد تعامل العقل الأوروبي بصوابية تامة مع هذا المبدأ الذي هو أصلاً من روح الإسلام ، فقام بتجميع عدد

٢٦ مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ، المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر - بيروت ، الطبعة الثالثة (١٩٨٤ م) ، ص ٢٣٧ .

من الطاقات ذات الأهتمام المشترك ، وأفسح المجال لها بالدعم المادي والمعنوي، ووجه المسيرة نحو خطوط التقدم ، فكان من شأن ذلك أن يبرز فجر عدد من الكتاب والأدباء ممن خاضوا تجربة العطاء الجماعية ، وساعدهم المجتمع بتبني إصداراتهم ومجهوداتهم بما خدم طموحهم الكبير .

إن الحكمة تلزمنا أن نقلّب الرأي ، ونوجد آفاقا جديدة تمكن من اجتياح بوابات المجهول الجاثم أمامنا ، وأن نفكر بأسلوب الواقع التجريدي والعلم التطبيقي ، من أجل صياغة موجه عارمة من الوعي الدافق .

ومن تحت انقاض الواقع ، بدأت تشرق شمس بعض الدعوات المنادية بضرورة إفساح المجال أمام المواهب الفلسطينية لتأخذ دورها ، لا أن نطمس على مواهبها ونحجم عطاءاتها (٢٧).. يقول الدكتور على الحمادي : ((القدرة على توليد البدائل من أهم المهارات التي ينبغي للمبدع أن يتصف بها ، إذ أن كثيرا من الناس يميلون إلى حصر أذهانهم في بديل واحد ، وهذا بدوره يؤدي إلى حرمانهم من إيجابيات كثيرة ربما تكون في بدائل أخرى لم يتم التفكير فيها)) (٢٨)..

٢٧ منها على سبيل المثال لا الحصر : المنتدى الثقافي ، وبيت الشعر ، والمركز الثقافي الإسلامي في الخليل ، واتحاد الكتاب الفلسطينيين - رام الله .

٢٨ ٣٠ طريقة لتوليد الأفكار الإبداعية ، ص ١٣ ، وانظر كذلك : ألحان الهدى ، النادي الفني - الكتلة الإسلامية ذراع الحركة الإسلامية العالمية في جامعة بيت لحم الأدبي الطبعة الأولى ١٩٩٨ م ، ص ٢ .

إن الشعب الفلسطيني اليوم بحاجة إلى تفكير ذو صبغة خاصة ، حيث إن ظروفه الخاصة تحتم عليه أن يبدع من الوسائل ما يقيه مصارع السوء ، ويكفل له في الآن عينه نقلة حضارية ، فعنصر الزمن متحرك ، والحاجة تفرض علينا أن نحتضن هذه المواهب حتى لو كان يعترينا بعض الضعف ، وشتم الواقع المرذول لا يفيد ، وعلمتنا مدرسة الحياة أن إيقاد شمعة في الظلام خير لنا من أن نلعن الظلام ألف مرة .

لا شك أن إيجاد مثل هذه المؤسسات الأدبية - التي خلا منها المجتمع الفلسطيني - يدفع باتجاه النمو الأدبي ، والتخصص الدقيق فيه ، فهي كقيلة بإظهار الكفاءات ، ودعم العطاء ، واتساع المجال أمام الموهوبين للمشاركة في مسيرة التصحيح والنهضة .

وفي الآونة الأخيرة ، ظهرت بدايات عمل في هذا الإطار حيث تشكلت في بعض محافظات الوطن ، وبعد ما يسمى مرحلة السلام : مؤسسات لرعاية الإبداع الشعري لا سيما في المدن الكبرى ، وهذا خدم العمل الأدبي بشكل ملموس ، ومجال تطويره وارد ، وفرصة نموه إلى آفاق أسمى وأشمل قابلة للتطبيق .

حبذا لو وجد هذا الأمر العناية اللازمة له منذ زمن ، لكان الواقع قد تغير ، فقد أثر فقدان مراكز التجميع الأدبية أو المنتديات الثقافية ، أو المراكز الإبداعية على تطور الحركة الأدبية عموماً والشعرية خصوصاً حيث اضطر

الكثير من الشعراء إلى وأد قصائدهم بسبب ظرف لم يقدم لهم المجتمع فيه أدنى خدمة في هذا المجال .

رابعاً : هجرة العقول البشرية

كان من جراء الممارسات الصهيونية المبرمجة على الشعب الفلسطيني ، أن أدى الركود الاقتصادي ، والرعب الدائم ، وحالات البطالة المستشرية ، وغيرها من العوامل ، إلى توفير بيئة خصبة أمام الناس للتفكير في سبل الرزق وموارد الاقتصاد ، في بيئة لا يجدون فيها إلا فوهات البنادق محدقة بهم وإنما حلّوا أو ارتحلوا ، ولا يسمعون فيها سوى دوي المدافع ، وأخبار الشهداء ، وإعلانات الإعلام عن المجازر.

كل هذا ؛ دعا العديد من المثقفين الفلسطينيين من ذوي الخبرة والكفاءة والسبق إلى التفكير في الهجرة - محدودة أو مفتوحة الأمد - إلى البلاد الغربية والعربية ، بحثاً عن مآل آمن ، ولقمة خبز لاتكدرها رائحة الدماء ، ولا يعكرها تصاعد رائحة البارود.

هذا الأمر أثر وبشكل مباشر على الحركة الشعرية الفلسطينية ، فباتت تعاني من ضياع المواهب واحدة تلو الأخرى ، بعضها خرج والدمع في عينيه ، والبعض الآخر أسقط خلفه جرة الفخار عازماً أن يمضي في الطريق ، ولا يعود..

هؤلاء المبدعين الذين هجروا أوطانهم ، أعطوا الحالة الفلسطينية لوناً من الضعف ، فصاروا يساهمون في بناء المجتمعات التي ينتقلون إليها على حساب الأرض المباركة وحضارتها الخاصة ، مما شكل طعنة نجلاء في أحشاء الوطن النازف .

هنا ؛ لا بد من مخاطبة هؤلاء المغتربين بكلمات موجزة ، فأنتم أيها السادة عماد أمتكم ، وعلى أيديكم ستبسط الدنيا بساط الخير ، فبأي ذنب تُهجر الأرض ، وتحت أي ذريعة يلوع قلب الأدب الفلسطيني بفقده خيرة عقوله المبدعة .

الواجب على المؤسسات الحكومية والأهلية والتجمعات العشائرية ومراكز القوى والأحزاب والفصائل الفلسطينية أن ترى هذا الجانب وهي تخوض صرعها المحتدم مع عدوها ، حتى لا تتكرر مأساة الشعب الجزائري حينما انصرف لأموال الثورة ، ونسي في شوارع باريس وأزقتها سبعين ألفاً من المغتربين ، بينهم أكثر من ثلاثين ألف طفل ، أحتضنهم المجتمع الفرنسي ، وزرع فيهم ما شاء من المفاهيم ، وحلّت الطامة على الشعب الجزائري .. بتوقيع أبناءه .

فمن الضرورة بمكان ، أن يفسح المجتمع والمؤسسات والحكومات أمام هؤلاء فرص العمل التي تليق بهم ، واستقطابهم إلى العودة إلى أرض

الوطن ليمتتوا الدرع الحامي ، ويسهموا في المعركة التي ستطالهم عاجلاً أم آجلاً ، شأؤوا ذلك أم أبوا ، وهم بذلك بحاجة إلى لغة راقية حضارية في الخطاب ، يكون من شأنها إشعال الانتماء والولاء لقضيتهم وهويتهم ، وتقديم البديل اللائق لهم، تشجيعاً لهم على اتخاذ القرار الصائب .

وإذا تم تجاهل الأمر ، فالعواقب وخيمة ، والمسؤولية تطال كل مستطيع ، ويكفينا للتدليل أن نسترشد بما حصل مع الأقطار الأخرى ، التي تعرضت لسياسات الاحتلال الذي يرضع من نفس الثدي ، حتى ولو اختلفت مسمياته .. فماذا استفدنا من تجربة الشيشان ؟

وماذا اعتبرنا بما حصل في البوسنة والهرسك وكوسوفو ؟

وكم من المنافع اقتبسناها من كشمير ؟

أليس المستهدف فيها واحداً .؟ أليس الذئب هو الذئب ؟ فما لنا نمر على الأحداث مر السحاب دون روية وتؤدة .؟

فلنجبر هذه العقول كي تعي ، وهذه الآذان كي تسمع ، وهذه العيون

لكي ترى .

خامساً : الوضع الاحتلالي العام

أخرت هذا العامل حتى لا يظن ظان أننا قد استكملنا كل جوانب الصواب ، والإعداد المهني ، ولكن الاحتلال الهجري كان حجر العثرة الذي سد أمامنا منافذ التطبيق.

صورة العدو معروفة لكل طفل يجبو ، ولكل شاب وفتاة ، وهي ليست بحاجة إلى كثير من الجهد لبيانها ولكشف وقائعها ، فالحال أبلغ في الوصف من الكلام ، ولكنني أردت هنا أن أعرض للوضع الاحتلالي الدائم والمتعدد الصور ، في أمور تخدم الهدف الموضوع .

تقطيع أوصال الأرض :

اتبع العدو الصهيوني مع الشعب الفلسطيني سياسة : فرق تسد ، فقام وعلى مراحل التاريخ بتقسيم الأرض الفلسطينية إلى مناطق محصورة أشبهه (بالكتنونات) ، ليسهل عليه القيام بأعماله العسكرية في كل قطاع من قطاعات الوطن ؛ بمنهجية تقررها المؤسسة العسكرية الحاكمة .

أضف إلى ذلك ؛ أن العدو عمد إلى وضع الحواجز والمتاريس الدائمة والمتنقلة على طول الطرق التي تصل المدن الفلسطينية بعضها ببعض ، وقام بمنع الناس من العبور ، وفرض نظام التصاريح الخاصة ، كل ذلك من

أجل أن يضبط حركة الشعب الفلسطيني ، ويسمح بالعبور لمن أراد ، ويمنع من شاء بدون حاجة إلى عذر.

هذا الوضع أثر على الجانب المادي من مناخ شتى ..

الأول : حصر الكفاءات والطاقات في إطار ضيق ، بما يعني منع الخبرات والتجارب من الانتقال ، الأمر الذي أدى أن يقوم كل تجمع سكاني بجهد منفصل ، وفي ذلك ما فيه من إضعاف العمل الأدبي والحجر عليه ، وتجفيف منابعه ، والقضاء على إبداعاته وطموحاته .

الثاني : منع المبدعين من الشعراء والأدباء من المشاركة في الفعاليات والأنشطة التي تمتد على طول الوطن ، مما ترك حالة من الذبول والتراخي ، وتحجيم الإبداعات ، وطمس العديد من المواهب ، لا سيما الناشئة منها .

الثالث : إبعاد الأدباء والشعراء عن مصادر العمل ، فيبعدوا هذا عن مصدر تكفل الإصدار الأدبي ، ويمنع هذا من الوصول إلى المطابع في المحافظة الأخرى ، وإقصاء ذلك عن مصادر المعلومات ومراكز الإحصاء ، وهذا يحطم العمل البحثي الذي يحتاجه كل أديب وكاتب .

وأمام عدو لا يرحم ، ولا يتواني عن قتل من يخالف الأوامر
المجحفة ، لمن يكن أمام الأذباء إلا أن يتعاملوا وفق قاعدة العمل بالمجال
المسموح ، ولك أن تتخيل حجم الإبداعات التي كانت تصدر لو كانت حركة
التنقل سهلة ممكنة .

والأمر من ذلك .. أن الاحتلال منع الأذباء الموثوقين من السفر إلى
خارج حدود الوطن ، لتمثيل فلسطين في مجالات الأدب ، حتى لا ينقلوا إلى
الشعب العربي المسلم في الخارج ما عمي عنه ، الأمر الذي همّش كثيراً من
المبدعين ، ومنهم من كان بإمكانه فتح آفاق جديدة وواسعة من العمل والعطاء .

بهذا استطاع العدو طعن العمل الأدبي في مقتل ، ودفع باتجاه خموله
وخمود ناره كلما تأججت أو بان أوارها.

الوضع الاقتصادي الخانق

المال عصب الحياة ، وهو قوام المجتمع ، ومن السذاجة أن نتصور
أن الأعمال والمجهودات تتم لوحدها دون تكاليف ورسوم باهظة ، فنحن اليوم
في عصر التكنولوجيا والعلم المتقدم ، وكل شيء بثمنه - كما يقولون - .

تحت مظلة هذه المقدمة ، أعرض على أحداكم كيفية تأثير الوضع المادي على الحركة الأدبية الفلسطينية ، وكيف تحطمت الآمال ، وشنقت المواهب على حبال الوضع الاقتصادي المتردي .

لقد امتلك العدو بتطور رؤيته واعتماده على المعلومات والثورة التكنولوجية خبرة في التعامل مع مراحل الصراع ، فصار يعرف من أين تؤكل الكتف ، و صار يرصد ويدقق ويتحرى حتى يعرف متى وأين وكيف سيورد سعد الإبل .

اقتناع العقلية الصهيونية بضرورة محاربة ظاهرة التعليم الفلسطيني التي انتشرت لا تحدها حدود ، ومن أجل ذلك فقد قامت برسم سياسة مضادة تحمل عنوان محاربة الإرهاب ، تقصد بها الصمود الفلسطيني ، والإرادة الاقتصادية ، والأدب العربي ، والتخصص الدراسي الدقيق .

فقامت بسد الطرق ، وفرض نظام حظر التجول ، والاستيلاء على المحال التجارية ، وحرقت الأراضي الزراعية ، ووسعت اعتمادها للبنوك التي تمتص السيولة النقدية وتحطم الاقتصاد ، وضيقت على التجار ، وفرضت الضرائب الباهظة على حركة الاستيراد ، وقزمت حجم التصدير ، كل ذلك بفهم واع ، و خطة مقررّة من المختصين .

مفاد هذه الخطة ، أن التضيق الاقتصادي سيجعل الإنسان الفلسطيني ينشغل بتوفير قوته وقوت عياله ، وستلهيه صعوبة الحياة عن حمل الفكرة ، وسيلجئه الفقر إلى التخلي عن المقاومة ، وبالتالي يسهل اقتياد هذا الشعب .

وقد أفرزت هذه الخطوات على الصعيد الأدبي تراجعاً واضحاً ، من

صوره :

١- إيجاد موازنة ما بين الكلمة واللغة ، فالأديب الفلسطيني حين يفكر بطباعة ديوان له ؛ سيفكر ألف مرة بالتكاليف الباهظة التي ترافق طباعة الديوان وتنسيقه ونشره ، في حين أن وضع معظم الأدباء هم من الطبقة المتوسطة الدخل فما دون ، مما يجعلهم في تردد دائم يؤدي بهم في كثير من الأحيان إلى العزوف عن طباعة إنتاجهم الأدبي .

٢- زرع التفكير الدائم عن ركود ظاهرة المطالعة ، وما في ذلك من كساد للأدب المعروف ، الأمر الذي يعني خسارة مادية محتومة للأديب والشاعر .

٣- تكاليف السفر المرهقة لزيارة المواقع والإشراف على معالم الوطن لرسم صورتها في القصائد ، وهذا مكلف مادياً ، بقياسه بمستوى الدخل للفرد .

عدا عن ذلك ، فإن الاحتلال شغل الأديب بهموم بيته وأسرتة ، فمصادر الدخل محدودة ، والوظائف بالكاد تكفي مؤونه شهر ، والبيت بحاجة

إلى متطلبات من طعام وشراب وكساء وعلاج حالات المرض وتوفير المستلزمات الأساسية للبيت والأسرة على حد سواء .

الوضع الأمني :

قيد جديد يفرض ، فصل وتعنت واضطهاد يضرب فوق رقاب كل الذين يفكرون بأن يتالق نجمهم ، فالشاعر الفلسطيني عنصر في مجتمعه ، وبالتالي فإنه مهدد في كل لحظة بالتعرض إلى حملات المداهمات والتفتيش والاعتقال ، ويكفي توصية على أقصوة ورق من المخابرات الصهيونية لتغيب الأديب في زنازين القهر أشهراً تطول ، أو سنوات تفيض بالمرارة .

ولا يحتاج عدونا إلى أي مبرر ، فإذا كنت فلسطينياً فأنت متهم ومجرم بالفطرة ، على عكس كل القوانين في العالم ، لأنك فلسطيني فأنت متهم، وكل أدلة الدنيا لا ولن تثبت براءتك .

فنحن لا نتحدث جزافاً ، فقد شهدت السجون موجات من المعتقلين بسبب آرائهم أو مواقفهم أو كتاباتهم أو بحوث أصدروها تتناول ما يشم الاحتلال رائحة أنه تطرف .

فمن أي اتجاه جئت ، ومن أي مشرب ارتويت ، هذا لا يهم ، المهم أن تغيب عن الأنظار حتى لا يتأثر أحد بأفكارك .

هذه العقبة الكؤود يعرفها كل الأدباء والشعراء والكتاب في أرض
المسرى ، وهم أمام هذا التحدي منقسمون إلى طائفتين:

الطائفة الأولى : آثرت العزلة السياسية ، وصبغت أشعارها بذكر
جمال الطبيعة وحب القدس " مظهراً وهندسة " ومديح الأشخاص ، ووصف
الأرض والثمار والورود ، ومال بعضهم نحو الشعر الغزلي ؛ حيث لا تهمة !!
وهؤلاء تملكهم الرعب وسطا الخوف على عقولهم وأفئدتهم .

والطائفة الثانية : هم الذين أيقنوا أن اليهود لا ولن ترضى عن أي
إنسان حتى يتبع ملتهم ، فعرفوا المقصد ، وكشفوا الهدف ، فما زادهم التهديد إلا
صلابة ، وما زادهم الوعيد إلا استبسلاً ، فأولئك خاب فآل الاحتلال فيهم ،
وصفعوه بصبرهم وتحديهم وعنفوان قصائدهم التي أرعدت وتألقت في قلوب
الناس قبل أوراق الصحف .

أما بالنسبة لمصير الفتتين ، فالأولى : لا شأن للإحتلال بها ، فقد
تابت وأنابت واهتدت إلى جادة الصواب !! وأما الفريق الثاني ، فقد جهز العدو
لهم من الزنازين غرف ضيافة ، ومن السجون دار إقامة وقرار .

وفوق آهاتهم .. لا بد أن نسجل لهم هذا الموقف ، لأنهم أهل للنشأ
والمديح ، فأولئك الذين رفضوا هيمنة المحتل على عقولهم ، وسلطته على
أفكارهم ، وقيوده على أشعارهم أبدعوا وأجادوا حتى وهم في قلب المحنة ،

وانظر إلى دواوين الشعر التي ألفت إبان محنة الإبعاد التي طالت أكثر من أربعمئة كادر فلسطيني ، وأقرأ في أدب السجون إن كان صبرك يحملك على طول القراءة (٢٩) .

الطابور الخامس .

مصطلح بات معروفاً ، إنهم الفئة التي سجدت تحت نعال المستعمر تقول ما قد روته حكايات (ألف ليلة وليلة) شبيك لبيك .. عبدك بين إيديك..

لن أخوض في تعريفهم أو وصفهم ، أو ما إلى ذلك من أمور ، فهي غدت من المعلوم من الدين بالضرورة ، ولكني سأسلط الأضواء على دورهم السري وغير المكشوف في حربهم على الأدب الفلسطيني ، وتمثل ذلك في عدة أمور .

١- بث الشائعات على الكتاب والشعراء والأدباء وتشويه صورتهم أمام المجتمع الذي يعيشون فيه .

٢٩ . ألف الكاتب في السجن عدة دواوين شعرية ، والتقى بالعديد من الأدباء شاركوه هذا الشرف في التدوين والتأليف .

٢- وسوسة لا تنقطع عن عدم جدوى المقاومة ، وأن ما يبذل فيها من جهد ستعقبه الخيانات ، وما هو إلا تضییع للجهد وإفراط بالأمل ، لا رصيد له في أرض الواقع .

٣- الاستهزاء بالموضوعات والقيم التي يبينها الأدباء في مصنفاتهم ودواوينهم ، وذلك لتفجير الناس منها ، وبالتالي ؛ إبعادهم عن ينبوع القيم والمبادئ ، لتركهم في حالة من التيه والعشوائية التي تقود حتماً إلى محصلة تساوي : صفر .

٤- ممارسة دور خبيث في التأثير على الآباء والعائلات بعدم إرسال أبنائهم للدراسة في الجامعات ، تحت حجة أن الوضع الاقتصادي لا يسمح ، وأن على الأبناء مساعدة آبائهم في توفير سبل الرزق ولقمة العيش ، وهذا السمّ المغلف بثوب النصيحة وقع ضحيته العديد من الأشخاص ، ممن مورست عليهم الضغوط للقعود ، وخصوصاً أصحاب التوجهات التي تؤثر في المجتمع بشكل مباشر ، عبر تواصلها الحيوي معه .

قد لا يتنبه الكثير من الناس إلى هذه الفئة الشاذة ، ويستغربون ما نطرح ، ويتساءلون بحسن النية : ماذا يجني العدو من ذلك ؟

نجيب دون إسهاب، إن ذلك هو ميدان الحرب الأول ، فإن كسبه في مجال الكلمة ، كان سحق الطلقة عليه أهون وأسهل .

تكمُن الخطورة في قيام هذه الفئة النشاز بالتأثير السلبي على عدد من الأدباء ، بحرق معاني الخير في نفوسهم ، أو حتى دعم البعض من أجل إصدار مطبوعات أدبية تتنافى مع أصالة هذا الشعب وتطلعاته ، وتطعن ثوابته وركائز الخير فيه ، وأذكر ما كتبه الدكتور عبدالله ناصح علوان حين قال :

((ووسائلهم - يا شباب - في بث الفساد والتضليل والإلحاد كثيرة ومتنوعة ، في الصحف تارة ، وفي البث الإذاعي أخرى ، وفي التمثاليات التلفزيونية حيناً آخر ، وفي الندوات والمراكز الثقافية مرة ، وفي افتتاح المنظمات الدولية المتعددة مرات .. عدا عن الدس المركز السافر الدائم في المناهج والكتب ، وأجهزة التعليم والجامعات .. ولا يخفى عليكم - يا شباب - أن هؤلاء العملاء يُختارون من طبقة ذكية ماهرة ، عندها من أسلوب المنطق والإغراء والتضليل ما يستطيعون التأثير به على عقيدة الولد وأخلاق البلد))
(٣٠)

٣٠ . الشباب المسلم في مواجهة التحديات ، ص ٧٥ .

مقومات الإبداع الشعري الفلسطيني :

حبا لله الأرض الفلسطينية المباركة مزايا جعلها محط اهتمام العالم بأسره ، وهذا ما يشهد به التاريخ وتقرره العصور ، فكم من حملة صليبية جردت ، وكم من جيش أُعد ، وكم غازٍ استباح ، وكم من أمة احتلت.. كل هذه الأهداف التوسعية التي آخرها وجود توحد التطلعات الأوربية الأمريكية بإنشاء دولة الكيان المسخ ، ودعم هذا الجسم السرطاني بمقومات الحياة .

هذه الحملات الاستعمارية التي اختلفت فيها الوجوه ، وتعددت فيها البسة وأزياء وسمات المحتلين ، كانت ذات حقيقة واحدة تجمع كل هؤلاء ، وهي الرغبة الجامحة بالسيطرة على هذه الأرض، والاستيلاء على ثروتها ومقدراتها، والأهم من ذلك ، التواجد في قلب العالم من حيث الموقع الجغرافي الذي تتميز به أرضنا المباركة .

ولكن ؛ أمام الأديب والشاعر الفلسطيني مجالات وروافد زاخرة بالعطاء الفياض ، وسأذكر هنا بعض الجوانب التي تشكل مادة زخمة أمام الشاعر الفلسطيني ليستقي منها مداد قصيدته ، فمن هذه الأمور .

أولاً: الحقيقة الدينية :

ذُكرت فلسطين في كل الكتب السماوية ، حتى المحرفة منها كالتوراة والإنجيل ، وذكرت الروايات التاريخية أنها مهبط الوحي السماوي ، وأرض الرسائل المتعددة ، وعلى ترابها صال الأنبياء وجالوا ، فتحت هذا التراب قبور العديد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (٣١).

وفي صميم تكويننا العقائدي ، وباستقراء تاريخنا العربي الإسلامي ، فإننا نقف أمام نصوص القرآن الكريم التي لفتت أُنْتباه المسلمين إلى هذه البقعة المقدسة ، منذ بزوغ فجر الإسلام ، فهي أول قبلة صلى إليها المسلمون في مهد الدعوة أكثر من ستة عشر شهراً ، ثم حولت القبلة بأمر رباني بعدها إلى مكة " الكعبة" ، وفي ذلك نزل قوله تعالى ((وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ)) (٣٢) .

هي ارض الإسراء والمعراج ، فقد انتهت إليها تلك الرحلة الأرضية الخارقة التي قام بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من مكة إلى فلسطين ليبيّن رباط هذه بتلك ، ومن فوق صخرة الأقصى صعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى السماوات العلا ، لتكون فلسطين بوابة الصعود له إلى السماء ومعراجها إليها ، وفي ذلك يقول تعالى : ((سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ

٣١ انظر : مجلة المنبر ، وزارة الأوقاف الفلسطينية ، العدد ٣٦ ، شهر ٦ عام ٢٠٠١ ، ص ٣١ - ٣٩ .

٣٢ . سورة البقرة / الآية : ١٥٠ .

المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ البَصِيرُ)) (٣٣) .

وهي البقعة الجغرافية الثالثة من حيث القداسة في الاعتماد الإسلامي،
حيث تحدث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بتقرير هذه الحقيقة عندما قال
في الحديث الذي رواه أبو هريرة وأبوسعيد الخدري : ((لا تشد الرحال إلا إلى
ثلاثة مساجد ، المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدي هذا)) (٣٤).

وأيضاً فهي أرض الجهاد والرباط ، وصمام الأمان للعالم بأسره ،
جعل الله فيها أناساً أشداء لا يبالون أوقعوا على الموت أم وقع الموت عليهم ،
فهم الطائفة الظاهرة على الحق ، التي في صمودها ما يقهر عدوها ويغيظها ،
وهم ماكنون باقون في البيت المقدس وأكناف بيت المقدس (٣٥) .

هذه المكانة النفيسة والدرجة الرفيعة ، هي في صلب الاعتقاد الإيماني
في وجدان وقلب كل مسلم خالطت بشاشة الدين والإسلام قلبه ، فهو يعلم أن
القدس هي - من أسماها - الطهارة والنقاء والصفاء ، وهي محل التقديس
الإلهي، فواجب الانتماء إليها لا يخالف فيه نو ولاء رباني صافٍ .

٣٣ . سورة الإسراء / الآية : ١ .

٣٤ متفق عليه

٣٥ . مجلة العربي ، العدد ٤ ، عام ٢٠٠١ م ، ص ١٦ - ٢٠ .

وفي سلسلة ترشيده للصحة الإسلامية ، كتب الدكتور الفقيه العالم يوسف القرضاوي هذه الحقائق وأصلها ، وقدم لكتابه بكلمات تجمع ذلك ، فيقول: ((القدس في الاعتقاد الإسلامي لها مكانة دينية مرموقة ، اتفق على ذلك المسلمون بجميع طوائفهم ومذاهبهم وتوجهاتهم ، فهو إجماع الأمة من أقصاها إلى أقصاها ، ولا غرو أن يلتزم جميع المسلمين بوجوب الدفاع عن القدس ، والغيرة عليها ، والذود عن حماها وحرمانها المقدسة ، وبذل النفس والنفيس في سبيل حمايتها ورد المعتدين عنها .. فللقدس قدسية إسلامية مقدرة)) (٣٦)..

والشاعر الفلسطيني الذي ترعرع في هذا الموقع المقدس ، ونشأ في هذه الأرض الطهور ، يتمتع بمزايا وصفات تؤثر بشكل تلقائي في صياغة كيانه وشخصية وأسلوبه ، ونال من طيب الثرى وشذى النسيم المبارك خيرات عميمة.

والذي يتذوق النص الشعري ويقف على بنود النظم ومحاور التعبير والبلاغة الأدبية المشمولة في ثنايا قصائده ، يلمس نكهة خاصة لهذا المعنى، تضيفها عليها هيبة المكان ، وقداسة البعثة ، ويستذكر دون توانٍ ذاك النسيم العليل الذي يحتك بقباب ومآذن المسجد المبارك والمبارك ما حوله ، ليتغلغل بعدها في ذروة الإنسان الفلسطيني ، فيعطي لقيمة الإنسان الفلسطيني بريقاً

٣٦ . القدس قضية كل مسلم ، د.يوسف القرضاوي ، المكتب الإسلامي للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٩٩٨م ، ص: ٧ - ٨ ، وفيه توسع ومقارنات دينية يجب الإلتفات إليها .

وزهواً ، ومن قرأ مجرد مرور الأديب الداعية مصطفى السباعي من على هذا التراب ومدى تأثيره به ، شمله الذهول من حجم التأثير الإيجابي التغييرى (٣٧) ..

ثانياً : المسجد الأقصى المبارك :

إنه شعار كل ثورة ، وبريد كل عاشق ، وصحوة كل عزيز ، وقبله كل منتفض ، وهو الشمس الذي يتفياً الشعب ظلالها ، والقوة التي يستمد منها شعبنا صموده.

فقبل أن تنتهي حكايات الزمان ، تؤوب إليه أحلامنا وأشواقنا ، وقبل أن يصل إليه اذان بلال بالفجر وتغرد فوق ساحاته ؛ تصله أرواحنا لتصلي في محرابه صلاة الانتماء ، فهو قبلة الأحرار الميامين ، وبؤرة الصراع المستحکم إلى يوم الدين .

المسجد الأقصى .. منارة الدنيا كلها إلى الهدى والتقى والنقاء ، وهو درة التاج الفلسطيني المرصع باللالئ ، تهفو إليه القلوب ، ويحنّ لقربه ووصاله الجسد ، وترتاح في أفيائه قوافل المرتحلين إلى المجد والأعالي .

٣٧ . مصطفى السباعي الداعية المجدد د.عدنان محمد زرزور ، دار القلم - دمشق ، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م ، ص ٢١ .

أعلن القرآن عن أهمية المسجد الأقصى وبركاته ، قبل بناء المسجد النبوي ، وقبل الهجرة بسنوات ، وقد جادت الأحاديث النبوية تؤكد مآقره القرآن ، منها الحديث المذكور سابقاً وحديث : ((الصلاة في المسجد الأقصى تعدل خمسمائة صلاة في غيره من المساجد ، ما عدا المسجد الحرام والمسجد النبوي)) (٣٨). (٣٩).

فهذا الجزء النفيس من أرضنا البتول هو غرة الأرض والباق جميعاً ، وهو معقد الخير والبركة ، وبوصلة الأمل التي تشرق في القلوب والضمائر ، فيه التين والزيتون ، ومنه كان المعراج إلى الملاء الأعلى ، وفيه صلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالأنبياء إماماً ، في دلالات متتابعة على قدسية وطهارته وسمو شأنه بين كل البطاح .

وقد وجد الأدياء الفلسطينيين شرفات الأمل تفتح لهم مع كل أذان يصدح من مآذنه الشّماء ، ومع صوت حفيف أشجاره العلية ، فتوجهوا إليه بقصائدهم تترا ، وانطلقوا من رحابه إلى كل الثرى ، وهم يحملون بين خباياهم مسك العبير من المسجد المقدس (٤٠)..

٣٨ . متفق عليه .

٣٩ . القدس قضية كل مسلم ، ص ١٢ .

٤٠ . انظر : التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، أ.د : وهبة الزحيلي ، دار الفكر - دمشق ، الطبعة الأولى (١٩٩١) م / ج ١٥ - ١٦ ، ص ١٠ - ١١٠ .

لا يدور الحديث هنا عن ما يمثله هذا المسجد من حيث روعة الفن المعماري الذي تَمَثَّل فيه ، والذي أخرس المتفلسفين من علماء الهندسة حتى وقتنا الحاضر ، ولكن الأمر إذا ارتبط بعقيدة وإيمان فقد أضفى عليه الجرس الذي تطرب له كل الآذان ، ويستقبله ويستحسنه كل قلب.

لذا كانت قصائد الشعراء الفلسطينيين ودواوينهم لا تخلو من ذكر المسجد الأقصى ، باعتباره المعلم الأبرز في فلسطيننا الطاهرة ، وهو الذي مثل وحدة الأرض ، ورفضنا للانكسار ، وتقرأ على قبابه عزمات الرجال ، عدا عن الفرسان الذين ضمخوا ترابه وساحاته ومحرايه وأقواسه بعبق الدم المهرق ، كلهم يهدي للقدس أشواقه ، ويخلع على باب المسجد أدمعه الرقراقة ، ويفتديه بالخمس ترخص دونه .

ثالثاً : الآثار الفلسطينية الممتدة :

أرض فلسطين كانت على مدار التاريخ محجاً لكل قاصد ، ومطمعاً لكل ناهب ، ودرّة لمن أراد أن يدخل بوابات التحكم والسيطرة ، لا يسلم له ملك إن لم يمتلكها ، هذه الأفكار والشواهد التاريخية قد رصدت بعيونها المفتوحة عشرات الدول والممالك التي عاشت واستوطنت على تراب فلسطين ، وحاولت أن تزرع فيه جزءاً من معالم حضارتها ومدنيتها..

المستعرض للكتب التاريخية يجد أمامه كمّاً كبيراً من المواقع الأثرية موزعة على أعضاء الجسد الفلسطيني ، من رفح إلى الناقورة ، ومن القدس إلى بيت لحم إلى رام الله إلى الخليل إلى أريحا إلى غزة ، وسر هكذا حتى ينيبك بحثك عن كل شبر من الأرض .

وهذا الموقع ليس مقدساً عند المسلمين وحدهم ، بل للنصارى أيضاً ، فبحوار المسجد الأقصى تجثم كنيسة القيامة ، وما كنيسة المهد عنهما ببعيد ، واسأل عن منازل الأنبياء ، ودور الأقباط فيها ، فالكل مترابط لا يفصلك عنه بون شاسع.

هذه الآثار قد أعطت الشعراء إلهاماً خاصاً ، فصاروا يُشهدونها على ظلم التاريخ ، ويستنطقون حجارته وأعمدتها وزخارفها ورسوماتها ، ويحاكونها كأنها كائن حي ينطق نيابة عن عشرات آلاف السنين ، فيعصر لهم الماضي ، ويقدم لهم خلاصة التجارب ، ويفتح لهم سجلات الحضارة والعمارة لكل أمة عاشت ، ولكل دولة دالت .

رابعاً : الطبيعة الخلابة لفلسطين.

إذا تحدثنا عن الهلال الخصيب ، كانت فلسطين بوابته ، وإذا حولنا مجرى الحديث إلى الطبيعة الجغرافية كانت فلسطين في الصدارة ، وإذا كان الحديث عن المواقع ؛ ستتعبك الشواهد ويضيق صدرك لكثرة البقاع .

فلسطين من أجمل الأراضي العربية والإسلامية ، وأرضها الخصبة، وترتيبها النقية ، وعوامل الطبيعة والمناخ فيها ، وشموخ جبالها ، وأنبساط مروجها ، وحدودها ، يصفون صفة جمالية أخاذة على هذه الأرض الرائعة ، التي أبدعها الله سبحانه وتعالى وبارك فيها بعد أن وضع الأقصى تاجاً لها ، ومن مظاهر البركة : تلك المناظر المدهشة ، والتي يقف الحليم أمامها حيراناً لا ينبس ببنت شفة.

إضافة إلى ذلك؛ فإن فلسطين تمتد حدودها التاريخية شرقاً لتصل إلى الأردن والبحر الميت ، وغرباً إلى البحر المتوسط ، وتجري خلالها العديد من الأنهار ، وتحت سمائها من المجمعات المائية والبحيرات ما يأخذ الأبواب ، كبحيرة طبرية والحولة ، وغيرهما .. الأمر الذي يثري التربة ويسقي الحرث ، وينبت الثمر بإذن الله خالقه العظيم.

فسهولها الخضراء الممتدة لوحة فنان مبدع ، وسواحلها وموانئها وبحيراتها وأنهارها ، تهديك الجمال هدية ، وتضعك على بوابة حلم لا تريد أن تصحو منه ، ففي كل شبر آية ، وفوق كل بقعة حكاية ، وفي وجه جبالها وقسمات وهادها وصفحة بحارها تقرأ التاريخ والجمال والروعة ، في سفر واحد اسمه فلسطين.

وجد الشعراء في هذه الصور المبدعة محاور تجذبهم إليها ، وتأسر
ألبابهم وأقلامهم ، فصاروا إذا كتبوا ذكروها ، وإذا نظموا حاكوها ، وإذا سئموا
استطابوها ، وإذا اشتد عليهم الكرب واليأس حطموه بسويعة في أحضان طبيعة
لا تُملّ بتاتاً .

تجمع الروافد

الإسهاب لن يفيدنا ، ففلسطين كتب على جبينها : هذه الأرض التي تتصارع فيها الحضارات والمطامع والأدمغة والقلوب ، فأوغل فيها برفق.

لكن مجموع الروافد التي أسلفناها تتجمع جميعاً في موقع واحد، وتصب كلها في بقعة واحدة ، هي فلسطين الدم والشهداء ، فلسطين الحضارة والرونق ، فلسطين التضحية والفداء ، فلسطين الأسرى والجرحى والثكالى واليتامى والأرامل ، فلسطين الجرح النازف ، أو الموت الناسف ، فلسطين التاريخ والحاضر والمستقبل ، فلسطين الطبيعة والخيال والآثار والقداسة ، فلسطين القدس والأقصى ، فلسطين العروبة والإسلام والنصر المبين.

أيتها الأرض المباركة .. يا من رفضت أن تغرس فيك بذار التهويد، وقذارة الأرجاس ، يا من صبرت على مر الجفا من الناس ، يا من ناديت فتخاذل عن نصره لوائك الحراس ، لن نبرح هذه الأرض ، ولن نترك هذه الديار ، وأعلمي أيتها القاهرة أننا فيك ولدنا ، وعلى ترابك نشأنا وترعرعنا ، وعلى ثراك تدرجنا ولعبنا ، وفي محاربيك نشأنا وصنعنا ، وتحت التراب الذي عشقناه حتى الثمالة وحد الخرافة سندفن ، حتى إذا بعثنا يوم النشور قلنا وبكل عنفوان .. نحن سفراء أرض فلسطين .

اسمحوا لي أن أسجل استغرابي ، كيف لمن عرف هذا وشاهد كل هذه
الروائع ، ومسه ظلم الوقائع أن لا يلتهب قلمه ، أو وجود يراعه ..

يا سادتي ، نحن نتعامل مع عقيدة ، مع واقع ، مع تراث ، مع مجد
مسلوب ، وأمة مغتصبة ، وعروبة تائهة ، وقيادات خاطئة ، وشعب فلسطيني
عزم على الخلاص ، فاستسهل درب الرصاص ، ألا يستحق ذلك منّا وقفة
متأمل ، وثورة شاعر ، وانتفاضة أديب مغامر ؟ بلى والله !!

وما بين هذه الآمال والتطلعات ، وتلك العقبات والعقائيل ، يقف
الشاعر الفلسطيني شعلة متوثبة للعطاء ، ينقب في دروس الماضي عن صلاح
الواقع ، ويرسل إشعاعات الأمل برغم المحن ، ويدوس على شوك الشعاب
ليصل قمم الشوامخ الرواسي ، فيكفيه الأدب عبادة ، وإبداعه وسيلة يتقرب بها
إلى الله قبل أن ينمي الموهبة ويبدع بين أقرانه ، يحمل عبء المسؤولية
والتكليف بكل جدّ وعزيمة ، ويقارع خطوب البلاد كصخرة صماء لا تجدي
معها الأمواج حيلة ولا وسيلة .

فلنعد كتابة التاريخ (٤١) .

بعد توالي الهزائم على رأس أمتنا ، وبعد أن تقهقر الانتماء وتوارى الدين لفترات تقاربت أو تباعدت ، وبعد ما أضحت فيه أمتنا تستقبل وقع الهزائم صباح مساء ، يلفّها الحزن والأسى ، ورحل قطار الأمل إلى ميل آخر ، ما العمل؟؟

دعوني أيها السادة أنقل إليكم مشاهدات حية ، شاهدها القاصي والداني، وسمعها القريب والبعيد ، قبل أن أخوض في غمار الموضوع.

إذا سألك أحد عن الهزائم ، قل : نعم ، وإن سألك تارة أخرى عن موت العرب ، قل : نعم ، وإذا سألك آخر عن تراكم الهموم والأحزان ، فإومئ برأسك مشيراً بالإيجاب .

أما إذا سألك أحد : هل انكسر الشعب الفلسطيني أو بادت الإرادة فيه ؟ فاصرخ بكل عزم وكبرياء .. وقل : كلا ..

٤١ كتب د. قاسم عبده قاسم في هذا الموضوع شيئاً مفيداً وأصيلاً ، يرجع إليه في مجلة العربي ، العدد ٤٩٦ ، شهر ٣ / ٢٠٠٠ ، موضوع : القراءة الدينية للتاريخ ، ص ٢١-٢٥ .

أعطوني واحداً في الكون ، بأي لسانٍ ناطقٍ ، وبأي مظهرٍ أو جوهرٍ
 بدا ، يشاهد شعبنا الرائع يثور كل حين من الزمن ، فإذا قمعت ثورة ، أو أخمد
 أوار انتفاضة ، لم تمر بضعة أعوام حتى يكون هذا الشعب قد التقط أنفاسه
 ليواصل المسيرة من جديد .

هذا لمن يريد أن يعرف .. أما في أحداث إنتفاضة الأقصى الأخيرة ،
 فقد اتجهت الأمور في منحى آخر ، حيث كان العمل يتفجر في الصراع بتوقيع
 منتمي ، وكانت البطولات الخالدة تكتب فوقها : صنعها مؤمن ، وكانت الصحافة
 والناس والمنتديات والمحافل تقول بعد كل معركة : " خاضها مقدم " ، فأني نقلة
 هذه التي تمت بعد سنوات من التطبيع والتركييع والخنوع العربي .

إنها صور من تاريخ الصحابة تعود ، تطرق كل أذن ، وتفتح كل

عين .

إن الإسلام عاد يجري في العروق ، إنه الأمل المشرق الذي رفع
 الهامات بعد أن ذلت ، وصوت الإيمان الداوي الذي رقى أمتنا الملوغة بسم
 الصمت والحياد ، فهذا الشعب قدم في هذه الثورة لوحدها بأساليبه البدائية في
 الصراع مليون ملحمة بطولية ، لو عدها المحصون ما وسعت أوراق الشجر
 للكتابة عليها ، وما كفاهم ماء البحر مداداً .

أم تودع ابنها وهي تعرف أنها لن تراه في هذه الدنيا بعد هذه اللحظات ، شهيد يطوي الأرض من سرعة اقتحامه لدروب الردى ، أمة تقبل على الشهادة ، وتتبنى خيار المقاومة حتى الرمق الأخير ، ويستشري فيها بريق القدرة والتلاحم والعطاء .

إننا اليوم ، وبعد هذه " السيناريوهات " البطولية التي حطمت أفلام " الكابوي الأمريكي " وأفلام " هوليوود " ، وسبقت عناصر التشويق في كل مجالات (الأكشن) بحاجة إلى وعي جديد ، ونظرة جديدة ، ومقياس مختلف عن كل وقت مضى .

فشعبنا الفلسطيني اليوم ، ليس كما كان بحال ، العلم قد صاغ فكره وتوجهه، والدين قاد زمامه إلى الأمل والعمل ، والرجال باعت أرواحها رخيصة في سبيل الله ، والكل عرف الصواب حتى من يحاول طمسه بغريبال .

إنه شعب قد شطب تاريخ الهزيمة من عقله ، ومحا من ذاكرة الأيام عفن التخاذل والانكسار ، وغير مجرى التاريخ ، وأرغم أنوف الجبابرة ، وبات في أقسى لحظات الحياة وأشدّها على المرء بكل عنفوانه وجاهزيته لا يبخل بمال أو نفس أمام غايته التي ارتضاها.

ولزاماً علينا أن نصوغ من هذه الذكريات بداية ، وأن نبدأ تسجيل التاريخ العابق بالمجد ما يخلدنا في سفر العظماء ، وهذا لن يكون دون أن

نصح الميزان ، ونصوب المسار ، ونقومّ التصور ، حتى نبدأ من جديد بأدب
فلسطيني محض ، وعقول مبدعة منتمية ، لنوجه مسيرة الصحوة ونرشدها،
وتكون أشعارنا وأفكارنا راية يتجمع تحتها كل أبي مخلص غيور.

سمة الشعر الفلسطيني

الحرص على الشعر صفة كل أديب حتى لو لم يكن شاعراً ، وبهذا نعلل حجم التوجيهات والتعليقات والمواد النقدية التي تزخر بها الصحف والمجلات وكتب الأدب ، كلها تساهم في خدمة العمل الأدبي والإرتقاء به نحو مجالات من الإبداع والتطور (٤٢).

يعتبر التساؤل عن هوية الشعر الفلسطيني مقبولاً حين يطرحه غيور حريص يتبنى قضاياها ، ذو همة ورغبة وإرادة تصحيحية تغييرية بناءة ، فما هو الفارق الذي يبرز من خلال القصائد الفلسطينية ؟

وماهي سماته وصفاته التي تزين بها ؟

وللإجابة على هذا التساؤل ، لا بد أن نقر بأن الشعر فنّ خاص ، له سماته ورونقه وأسلوبه ، سواء من حيث البناء الهندسي لجسم القصيدة ، أو مدى تأثيره بعد تقبله من المستمع أو القارئ ، وهذا الفن الأدبي حين تتأمله ، فإنه مزيد من الإقتناع الشخصي ، والنموذج المثالي ، يصوغه الشاعر بقلمه ليثبت ذاته ، ويؤكد وجوده عبر كل شطرة شعرية وتفعله وردية .

٤٢. انظر : مجلة العربي ، العدد ٥٠٩ ، شهر ٤ ، عام ٢٠٠١م ، أوراق أدبية ، د. جابر عصفور ، ص ٨٢ - ٨٧ .

فالشعر هو إرادة قوية ، وثورة وجدانية ، ومعرفة بلاغية ، وبناء هندسي ، وهمة مذابة في قوالب الكلمات ، فهو إنعكاس فهم ، وترجمان قيمة ، وتبيان واقع ، ووصف حدث ، وهو رسالة من قلب تتشابك فيه الأناث والآهات مع البسمة والفرحة ، واحتفال متكامل ، تتراقص فيه الكلمات ، وتتمايل فيه الأحرف ، ويشدو فيه البديع ، وتمطر فوقه سحائب الإبداع ودقّ الذات والمحبة والقوة.

وما بين هذه القيم والمعاني ، طلع فجر الشعر الفلسطيني وقد نضاً عنه ثوب الماضي ، ليخرج إلى حيز الوجود متوشحاً بسماته وفضائله وآياته ، والتي هي متعددة متناثرة ، ولكن من أبرزها :

أنه فلسطيني

ليس ذلك من باب التكرار في شيء ، فقد كانت هذه السمة إحياءً لما قد تم ذكره فيما مضى ، وإنما هي صفة مطعمة بالتميز .

فهو فلسطيني ، ينزف مع كل تفعيلة شعرية دم الولاء للأرض والقدس والهوية ، ويثبت في كل شطرة شعرية معنى الشموخ الفلسطيني .

وهو فلسطيني .. لأنه يحكي روايات التصادم اليومي ما بين شعب
جُرد من كل شيء إلا من كرامته ونخوته وبسالته ، وبين عدو مزنر بالموت
والدمار والحقد الأعمى .

وهو فلسطيني ، لأنه يعصف بكل مؤامرة حيكت ، ويدمدم على كل
خؤون ، وينبذ سحاب الظلم المتراكم برياح المنهج والفكرة والتصميم .

وهو فلسطيني .. لأن تلك القصائد تلمس فيها حجم الدمار ، وتشم
منها ريح الدم المنساب من جسد شهيد أو جريح ، وتسمع مع جرسه الموسيقي
الخلاب أنات مبنوثة في ثنايا الحروف المنظومة .

وهو شعر فلسطيني .. لأنه وصف الطفولة ، وحديث الطبيعة ،
ومنطق المآذن، ولواء القداسة ، يستمد من طهر الأرض وأثارها رسالة الفحوى.

وهو شعر فلسطيني .. لأنه كتب فيها ، وتمت هندسته فيها ، واستقى
من مدادها العذب ، وسطر على أوراقها البتول ، فهو طاهر في طاهر من
طاهر ..

وهذه السمة ، إنما كانت مميزة للشعر الفلسطيني ، لأنه ينبع من واقع
أليم ، ترفرف فوقه طيور الأسى ، ولا يفتح الشاعر الفلسطيني عينيه مع إطلالة
كل صباح إلا بواقعة جديدة ، ألفتها الأيام الحبالى بالأحداث في وطننا الحبيب

فلا تتقطع ، والدم والآهات والأنسام والأنفاس ؛ كلها تجدد الحياة كما يتجدد لحن القصائد ، لذا ؛ كان الشاعر الفلسطيني في كل صباح على موعد مع دسم الأحداث ، وكمّ من الشواهد التي تصلح كل واحدة منها لأن تكون معلقة متكاملة صريحة .

ويكفيها من سمو الوصف وبراعة التصوير ونفاذ الرسالة والمقصود أن نطلق على هذا الشعر بكل مواصفاته أنه : (فلسطيني) .

الخاتمة

بعد نظر وتأمل في حال شعبنا الفلسطيني الباسل ، وبعد استقراء للشواهد والأمثلة الحية التي تحيط به ، فقد اختتمت هذا البحث المتعلق بالظاهرة الشعرية في فلسطين ، وعرّجت على نموها عبر العصور ، لأسبر غور الحقيقة، وأترك نفسي أمام معطيات واقعية يلم بها من فقه معاني العيش على هذه البقعة المباركة .

عرّجت في حديثي على بعض المظاهر التي اعترت الحركة الأدبية في فلسطين عموماً ، من جوانب القوة ومحاور الضعف ، وسلطت الأضواء جاهداً لإبراز دور الشاعر الفلسطيني والأديب الفلسطيني على خلق جو من الإنسجام ما بين روح الكلمة ، وعطر القدس، التي تكتب في ظلالها الكلمات .

وتحت مظلة الإيمان الداوي ؛ كان هناك حديث عن صورة المعركة الفكرية الأدبية بين شعبنا المكافح وبين جلاديه ، فجعلت من لساني مقصلة لكل من تسول له نفسه أن يتناول على شموخ هذا الشعب وعنفوانه ، وأبرزت الدور الإيجابي الذي لعبه أصحاب الثوابت العقائدية في معادلة الصراع ، وما لهم من أثر على توجيه المعركة وصقل عناصرها ، وتسييج المراحل بثياب التحدي والصمود.

وإني حين أختم هذه الوريقات ، فإني لا أنكر ما سرى في جسدي من مشاعر النخوة والعزيمة أثناء كتابتها ، فقد كتبت كلماتها والبنادق النازية تصوب نحو رأسي ، والأسلاك والأبراج تعلوا هامتي ، والجنود المدججون بالموت والسلاح قد عدوا عليّ أنفاسي ، ولكنني كنت أواجه كل هذا ببسمة الصابر ، ولن تتال برودة الحديد عن عزم تائر.

وللحقيقة ، فإني قد اعتمدت في هذه المباحث على الخبرات المنقولة بطريق السماع ، أكثر من اعتمادي على المراجع المختصة ، فتلك مجالها أهل التخصص العربي من طلبة الجامعات ورواد المجامع العلمية ، ولكنني أحببت أن يكون لي إسهام في نفض التراب والرماد عن لغتي الغالية ، بما أوتيته من مقدرة متواضعة .

ففي السجن ، لن تجد من المراجع إلا ما يتم تهريبه عبر السنوات الطوال ، وقد تجد ما ينفك فيه وقد لا تجد ، وما بين الإحتمالات المتأرجحة ، قررت أن أختم هذه المباحث الأدبية متكللاً على الله تعالى ، لأقدمها إلى شعبي العزيز ، وأمتي الغالية ، باكورة إنتاج أدبي ستتبعه البقية بحول الله وقدرته .

وختاماً ، فإني أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من مد لي يد العون والمساعدة ، وبسط لي خبرته وأفكاره وتجربته ؛ من أجل أن يخرج هذا البحث من رحم الموت الصهيوني بقوة العزم وبتوثب العازمين .

أسأل الله تعالى أن يحفظ شعبنا من كل سوء ، وأن يطهر أرضنا
 وديارنا من رجس كل غاصب متعجرف ، وأسأله تعالى أن يفك أسر
 المأسورين، ويردهم إلى أهلهم وذويهم سالمين غانمين .

((إنهم يكيدون كيداً * وأكيد كيداً * فمهل الكافرين أمهلهم
 مرويداً)) (٤٣) .

تم بحمد الله تعالى وتوفيقه

سجن النقب الصحراوي

قسم : د / ٣ - ٤

٢٠٠٣ م

٤٣ . سورة الطارق / الآيات : ١٥ - ١٧ .

فهرس المصادر المتوفرة

- ١- (٣٠) طريقة لتوليد الأفكار الإبداعية ، د. على الحمادي ، دار ابن حزم للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٩٩٠م.
- ٢- أزمة العقل السليم ، د. عبد الحميد أحمد أبوسلمان ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى ١٩٩١م .
- ٣- ألحان الهدى ، النادي الفني - مجلس طلبة جامعة بيت لحم ، الطبعة الأولى عام ١٩٩٨م.
- ٤- أمة تقاوم ، أسامة عبد الحق ، تقديم : د. أحمد الدجاني، مركز فلسطين للدراسات والنشر والبحوث - غزة ، الطبعة الأولى عام ١٩٩٩م.
- ٥- أسطورة الإطار - (دفاع عن العلم والعقلانية) ، كارل ر.بوير ، ترجمة أ.د. يماني طريف الخولي ، مطابع السياسة - الكويت ، طبعة عام ٢٠٠٣م .
- ٦- اقتحام الوعي العالمي في انتفاضة أسرى فلسطين في سجون الاحتلال ، عيسى قراقع وجميل المطور ، مركز الشرق للدراسات - رام الله ، طبعة عام ١٩٩٩م.

- ٧- الأدب العربي الحديث للصف الثاني ثانوي العلمي والأدبي ، وزارة التربية والتعليم - رام الله ، طبعة عام ٢٠٠٠ م .
- ٨- الإسلاميون الفلسطينيون والقضية الفلسطينية (١٩٥٠ - ١٩٨٠) ، د. بشير موسى نافع ، مركز فلسطين للدراسات والبحوث - غزة ، الطبعة الأولى (١٩٩٩) م .
- ٩- الإعلان الإسلامي ، على عزت بيجوفيتش ، تحقيق وترجمة : محمد يوسف عدس ، دار الشروق - القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٩٩ .
- ١٠- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، أ.د. وهبة الزجلي ، دار الفكر - دمشق ، الطبعة الأولى (١٩٩١ م) .
- ١١- الحركة الطلابية الفلسطينية الممارسة والفاعلية ، عماد غياظة ، مواطن - المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية - رام الله ، الطبعة الأولى (٢٠٠٠ م) .
- ١٢- الحياة الربانية والعلم " سلسلة في الطريق إلى الله ، د. يوسف القرضاوي ، مكتبة وهبة - مصر ، الطبعة الأولى (١٩٩٥) .
- ١٣- الشباب المسلم في مواجهة التحديات ، عبدالله ناصح علوان ، دار القلم - دمشق ، الطبعة الرابعة - ٢٠٠٢ م .

- ١٤ - الصراع السكاني في فلسطين ، الشهيد د. إبراهيم أحمد المقادمة ، الطبعة الثانية .
- ١٥ - الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، مالك بن نبي ، دار الفكر - دمشق ، الطبعة الثالثة : ١٩٨٨ م .
- ١٦ - القدس قضية كل مسلم ، د. يوسف القرضاوي ، المكتب الإسلامي للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ١٩٩٨ م .
- ١٧ - القصة الواقعية للأطفال ، د. محمود أبوفنة ، إصدار الكلية الأكاديمية للتربية في الدولة العبرية - حيفا ، مركز أدب الطفل ، دار الهدى للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى (٢٠٠١ م) .
- ١٨ - المرتضى ، أبوعلی الحسنی الندوي ، دار القلم - دمشق ، الطبعة الثانية ١٩٩٨ م .
- ١٩ - المسار ، محمد أحمد الراشد ، دار المنطلق للنشر والتوزيع - دبي ، الطبعة الثالثة (١٩٩١ م) .
- ٢٠ - المنهج الحركي للسيرة النبوية، منير محمد الغضبان ، دار المنار - الأردن ، الطبعة السادسة (١٩٩٠ م) .

- ٢١- الواقع الإحصائي في الأراضي المحتلة والتحديات المستقبلية ، د.حسن أبو لبدة ، مركز البحوث والدراسات الفلسطينية - نابلس ، الطبعة الأولى عام ١٩٩٤م.
- ٢٢- الولاء والبراء في الإسلام ، محمد بن سعيد القحطاني ، الفتح للإعلام العربي - القاهرة ، الطبعة السابعة (١٤١٧هـ) .
- ٢٣- بين الرشاد والتهيه ، مالك بن نبي ، دار الفكر - دمشق ، الطبعة الثانية ١٩٨٨م .
- ٢٤- تاريخ فلسطين الحديث ، د. عبدالوهاب الكيالي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ، الطبعة العاشرة ١٩٩٠ .
- ٢٥- حول قضايا الإسلام والعصر ، د. يوسف القرضاوي ، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠١م .
- ٢٦- دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي ، د. يوسف القرضاوي ، مكتبة وهبة - مصر ، الطبعة الأولى (١٩٩٥م)
- ٢٧- دور بريطانيا في تأسيس الدولة اليهودية (١٨٤٠ - ١٩٤٨) ، د. عبدالفتاح العويسي ، المركز الثقافي الإسلامي - الخليل - فلسطين ، الطبعة الأولى (١٩٩٨م) .

- ٢٨- رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر ، محمد قطب ، مكتبة السنة - القاهرة ، طبعة عام ١٩٩٠م .
- ٢٩- سيد قطب الأديب الناقد والداعية المجاهد والمفكر المفسر الرائد ، صلاح الخالدي ، دار القلم - دمشق ، الطبعة الأولى ٢٠٠٠ .
- ٣٠- شرح المعلقات السبع ، عبدالله الحسن بن أحمد الزوزني (ت ٤٨٦هـ) ، تحقيق محمد الفاضلي ، المكتبة العصرية - بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٨م .
- ٣١- فتح بيت المقدس ، محمد هاشم غوشة ، شركة المطبعة العربية الحديثة - القدس ، الطبعة الأولى ١٩٩٥ .
- ٣٢- مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ، المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر - بيروت ، الطبعة الثالثة (١٩٨٤م) .
- ٣٣- مصطفى السباعي الداعية المجدد ، عدنان محمد زرزور ، دار القلم - دمشق ، الطبعة الأولى (٢٠٠٠م) .
- ٣٤- معالم المنهج الإسلامي ، د. محمد عمارة ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، دار الشروق ، الطبعة الثانية (١٩٩١م) .
- ٣٥- ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم ، أمين محمد سعيد ، مكتبة مدبولي - القاهرة ، الطبعة الأولى عام ١٩٩٩م .

٣٦- نظريات التنمية السياسية المعاصرة ، نصر محمد عارف ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، الطبعة الأولى ١٩٩١ .

٣٧- هلم نخرج من التيه ، محمد قطب ، دار الشروق - القاهرة ، الطبعة الأولى (١٩٩٤م) .

فهرس الدوريات والمجلات

١. الصحف العبرية الرئيسية الثلاث (يديعوت أحرونوت ، معاريف ، هارتس -٢٠٠٣م) .

٢. صحيفة The Jerusalem post ، ٢٠٠٣.

٣. مجلة الأهرام العربي العدد ٢٥٦ ، ٢٠٠٢م السنة الخامسة .

٤. مجلة بلسم ، جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني ، العدد ٣٠٥ السنة السادسة والعشرون ، طبعة عام ٢٠٠٠.

٥. مجلة البيان ، لندن ، العدد ١٨٨ السنة الثامنة عشرة .

٦. مجلة الدراسات الفلسطينية ، مؤسسة الدراسات المقدسية - القدس
ومؤسسة الدراسات الفلسطينية - بيروت، الطبعة الفلسطينية، العدد ٥١ -
والعدد ٥٢ .
٧. مجلة السياسة الفلسطينية ، العدد الثالث والعشرون ، السنة السادسة ،
صيف ١٩٩٩م ، مركز البحوث والدراسات الفلسطينية - نابلس .
٨. مجلة العربي ، وزارة الإعلام بدولة الكويت ، رئيس التحرير : د.
سليمان العسكري ، العدد ٥٣٥ - ربيع الأول ١٤٢٤ هـ .
٩. مجلة فلسطين / تصدر في مخيم الدهيشة - فلسطين ، العدد السابع -
السنة السادسة ٢٠٠٠ م .
١٠. مجلة المنبر ، وزارة الأوقاف الفلسطينية ، العدد ٣٦ ، سنة
٢٠٠١ م .
١١. مجلة الوطن العربي ، إصدار شركة بريد جمونت النابضة -
بنما، العدد ١٣٦٩ / ٢٠٠٣ م .

فهرس الموضوعات

الرقم	الموضوع	الصفحة
١	الإهداء	
٢	المقدمة	
٣	الشعر كفن أدبي	
٤	الشعر في نموه التاريخي	
٥	الشعر في العهد الإسلامي	
٦	دور الشعر في البناء العام	
٧	الشعر وفنون الأدب الأخرى	
٨	تغيب الشعراء	
٩	إشكالية العمل الإحصائي	
١٠	مهمة الشاعر	
١١	الفهم السليم	
١٢	بعث الأمل	
١٣	الهجمة الدولية بحاجة إلى جهد مركز	
١٤	الواقع التعليمي في فلسطين	
١٥	الأدب الشعري بين الماضي والحاضر	
١٦	معركة أدمغة وثقافة	
١٧	الإسلاميون رأس الحرب	

	محاور التأثير في الشعر الفلسطيني	١٨
	شلال الدم المهراق	١٩
	مجالات الاهتمام	٢٠
	الأسرى بوابة الأمل	٢١
	ثوار رغم السلاسل	٢٢
	أهم المحطات المراعاة	٢٣
	الإصابات والإعاقات	٢٤
	من بين الجراح	٢٥
	براءة	٢٦
	شعب مهجر	٢٧
	محطات مضيئة	٢٨
	المعاناة والأمل والأدب الحر	٢٩
	تميز وتمايز	٣٠
	الطفولة المحرومة المعذبة	٣١
	شح موروث	٣٢
	صحو	٣٣
	نقطة نظام	٣٤
	مظاهر الدمار المستشري	٣٥
	بين كل هذا الركاب	٣٦
	صرخة	٣٧
	الخيانة القاتلة	٣٨

	إشكاليات الأدب الفلسطيني	٣٩
	بضاعة مزجاة	٤٠
	الانضباع بالغرب وأدبه	٤١
	كلمة حق	٤٢
	فقدان المجمعات الأدبية	٤٣
	هجرة العقول الفلسطينية	٤٤
	الوضع الاحتلالي العام	٤٥
	تقطيع أوصال الأرض	٤٦
	الوضع الاقتصادي الخانق	٤٧
	الوضع الأمني	٤٨
	الطابور الخامس	٤٩
	مقومات الإبداع الشعري الفلسطيني	٥٠
	الحقيقة الدينية	٥١
	المسجد الأقصى المبارك	٥٢
	الآثار الفلسطينية الممتدة	٥٣
	الطبيعة الخلافة لفلسطين	٥٤
	تجمع الروافد	٥٥
	فلنعد كتابة التاريخ	٥٦
	سمة الشعر الفلسطيني	٥٧
	الخاتمة	٥٨
	فهرس المصادر المتوفرة	٥٩

	فهرس الدوريات والمجلات	٦٠
	فهرس الموضوعات	٦١